الفصل الرابع
الحجية التربوية للسنة النبويـــة

مقدمـــــــــــة:

قضت مشيئة المولى عز وجل أن يخلق الإنسان حاملا في تكوينه اتجاهين متضادين، اتجاه ما تمليه عليه طبيعته المادية الجسدية من شهوات المأكل والمشرب والجنس، وما يجرى مجراها، واتجاه ما تمليه عليه تلك الطبيعة الأخرى غير المادية، من سمو ورفعة وتقوى وحسن خلـــق، ووفر له في الوقت نفسه إرادة الاختيار بين هذا وذاك.

ولأن المطالب المادية مغرية ملحة ملموسة مشخصة تجلب اللذة والمتعة، تطارد صـــاحبها وكأنها سياط تلهبه بصفة مستمرة، كان من العدل الإلهي والرحمة الربانية أن تكـــون هنـــاك سبل صادقة صريحة، ترشد الإنسان عواقب الانجراف، بغير ضوابط، وراء المطالـــب الماديـــة الجسدية الدنيوية، وتنبهه إلى ما فيه صلاح شأنه لا في الدنيا وحدها وإنما في الدنيا والآخرة في آن واحد [1]، يقول عز من قال:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْـــسَنَ اللَّـــهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص: ٧٧)

ومن هنا كانت رحمة الله بعباده أن أرسل من لدنه رسلا وأنبياء ليقوموا بمهمـــة التوجيـــه والإرشاد والتبليغ:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَـــا) (القـــصص: ٥٩)، وقال:

(رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّـــهُ عَزِيـــزًا حَكِيمًا) (النساء: ١٦٥)

ولما كنا ممن يؤمنون بأن الله وحده، سبحانه وتعالى هو الخالق، كان من المحتم أن يكـــون هو المصدر لكل ما يمكن أن يوجه العمل التربوي، كما فصلنا هـــذا في الفـــصل الـــسابق، وتكون معرفتنا بذلك عن طريق رسله الذين يصطفيهم لرسالته.

((1) موسى شاهين لاشين، وزميله،دراسات في السيرة وعلوم السنة، القاهرة، مطبعة الفجـــر الجديـــد، ١٩٨٤، ص ١١.

ولما كنا نؤمن بأن محمداً r ، هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو المبعوث من لدن الرحمة الإلهية بالرسالة الإسلامية للبشر جميعا، كان من الطبيعي أن نتجه إليه، في فعله وفى قوله، نستلهمه الموجهات الأساسية لما ينبغي أن يكون عليه العمل التربوي.

منزلة السنة بالنسبة للقرآن الكريم:

السنة النبوية هي الأصل الثاني من الأصول الإسلامية للتربية، فالقرآن مقدم، وهى تالية له، لأن القرآن كلام الله تعالى، الموحى به إلى رسوله r ، والتعبد بتلاوته، والمنقول إلينا بالتواتر، المعجز، فهو وحي بلفظه ومعناه، ومقطوع به جملة وتفصيلاً، وهو ينبوع الله ومصدر الشريعة، وأصل التربية، أما السنة، فلفظها غير متعبد به، والمقطوع به جملتها لا تفصيلها، وإليه مرجع الاعتداد بها، ثم هي بيان للكتاب، ولا شك أن البيان متأخر عن المبين(٢).

وأما منزلة السنة إلى القرآن من جهة ما ورد بها من القضايا، فإنها لا تعدو واحدة من ثلاثة:

أولا – أن تكون سنة مقررة ومؤكدة رأيا جاء في القرآن فيكون الحكم له مصدران وعليه دليلان، دليل مثبت من آيات القرآن، ودليل مؤيد من سنة الرسول r ، ومن هذا النوع: الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والنهى عن الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والتخلق بالخلق الفاضل (٣).

ومن النصوص الدالة على ذلك، قول الرسول r : "بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان"(٤)، فإنه يوافق قوله تعالى: (...وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ...) (البقرة: ٨٣)، وقوله تعالى: (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ...) (البقرة: ١٨٣)، وقوله تعالى: (...وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ...) (آل عمران: ٩٧)

ثانيا – أن تكون بيانا لما ورد في القرآن، وإظهارا للمراد منه، وإزالة لما فيه من خفاء، وتوضيحا وشرحا لما غمض منه، وهذا ما تبينه الآية الكريمة: (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

---

(2) على حسب الله: أصول التشريع الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩، ص ٣٧.

(3) عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، الكويت، دار القلم، ١٩٧٠، ص ٢٩.

(4) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث ١٩.

الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل: ٤٤). وكان عمر رضى الله عنه يقول: سيأتي قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل.

وقال علي بن أبي طالب، لعبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، حين بعثه إلى الخوارج: "... ولا تخاصمهم بالقرآن، فإنه حمال ذو وجوه، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصا، ولذلك، لما استدل الخوارج على كفر من ارتكب الكبيرة بظواهر بعض النصوص، كقوله تعالى، بعد الأمر بالحج: (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) لم يجد على أبلغ من الرد عليهم من السنة، إذ قال: "... وقد علمتم أن رسول الله r رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه، ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه، وقطع (يعنى يد السارق)، وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكح المسلمات، فآخذهم رسول الله r بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، و لم يمنعهم سهمهم من الإسلام، و لم يخرج أسماءهم من بين أهله" [٥].

ومن هنا كان المسلمون في حاجة إلى معرفة بيان رسول الله r ، مع حاجتهم إلى معرفة كتاب الله، ولا يمكن أن يفهم القرآن على حقيقته، وأن يعلم مراد الله من كثير من آيات الأحكام فيه إلا بالرجوع إلى رسول الله r الذي أنزل الله عليه الكتاب ليبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم [٦]، ومثال السنة المبينة لمجمل القرآن، بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج الواردة في القرآن، فإن الله تعالى أمر بالصلاة في كتابه من غير بيان لمواقيتها وأركانها وعدد ركعاتها، فجاءت السنة النبوية مبينة لذلك.

ثالثا – أن تؤسس لحكم جديد في قضية جديدة، وإن لم يكن هناك اتفاق تام حول هذه الوظيفة، ومثل القائلون بها بتحريم رسول الله الذهب والحرير للرجال، وحد شرب الخمر، والأحكام الخاصة بهذه القضايا لا تتناقض مع أحكام القرآن، بل تلتقي معها، ولهذا جاءت الأوامر القرآنية بطاعة الرسول استقلالا، يقول العلماء: أعاد القرآن لفظ أطيعوا في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ) (النساء: ٥٩)،

---

(5) على حسب الله: أصول التشريع الإسلامي، ص ٣٨-٣٩.

(6) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٢، ص ٣٧٦.

بالنسبة للرسول r ، و لم يعده بالنسبة لأولى الأمر، إشارة إلى أن طاعة الرسول واجبة استقلالا، أما طاعة أولى الأمر فواجبة تبعا لا استقلالا [٧].

وقد يسأل البعض: لماذا لم يحتو كتاب الله عز وجل تفصيلا على مثل هذه الأمور وغيرها التي تركها لبيان الرسول r ؟

والجواب أن كتاب الله لو اهتم بهذه التفصيلات لاستطال استطالة تجعل من الحرج على المسلمين أن يستقصوه ويحفظوه ويرتلوه، وكل هذا واجب عليهم، هذا فضلا عن أنه كتاب هداية يضم كل ما يهدى المؤمنين في كل وقت، مما كان لابد معه أن يغلب عليه – في كثير من الأمور – تناول القواعد والأصول العامة، كما نرى في الدساتير المنظمة لنظم الحكم في كثير من دول العالم حيث تكتفي بتقرير القواعد والمبادئ والأسس والتوجيهات العامة، تاركة التفاصيل للقوانين، فالسنة إذن بالنسبة للقرآن كالقوانين بالنسبة للدستور.

أهمية استناد العمل التربوي على السنة:

فلكي نعرف مكانة السنة النبوية في بناء التربية الإسلامية، مما يوجب العمل بها، فإن هذا أول ما يظهر لنا من خلال تأملنا لمهمة رسول الإسلام r [٨]، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (آل عمران: ١٦٤)

وهذه الآية التي تكرر معناها أيضا في سورة أخرى تبين بوضوح أن مهمة الرسول r لا تنحصر في تبليغ الكتاب الذي يتضمن كلام الله تعالى إلى الناس وتلاوة آياته، بل من مهمته أيضا ثلاث نواح أخرى مهمة هي:

أ – تعليم هذا الكتاب، أي تفهيم الناس معاني آياته، ومقاصد نصوصه وأوامره ونواهيه، وكشف معالم الطريق التي يدعو الناس إليها وتحديد حدودها، ليمكن المؤمنين من تطبيق نصوصه بصورة تحقق أغراضها العامة الإصلاحية وتحافظ على روحها.

ب – تعليم الحكمة وإيضاح طرقها وأساليبها في القول وفي العمل وفقا لقوله تعالى في موضع آخر: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: ١٢٥)، ذلك لأن العمل بأوامر القرآن وتطبيق ما جاء فيه يحتاج إلى الحكمة التي

---

(7) زكريا البرى: أصول الفقه الإسلامي، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٧١، ص ٤٧.

(8) مصطفى أحمد الزرقاء: في الحديث النبوي، دمشق، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٦، ص ١٠.

هي الثمرة التجريبية للعقل الناضج في الإدارة والتدبير، فالحكمة هي الكفيلة بحسن التطبيق والمحافظة على المقاصد الأساسية العامة في التربية والتشريع.

ج – تطهير قلوب المؤمنين وأعمالهم من الملابسات التي قد تشوبها فتفسدها، وذلك بزرع الإخلاص في نفوسهم والإيثار وحب الخير، ووزن الأمور بميزان المصلحة العامة لا بميزان الأهواء والمصالح الخاصة، وهذا معنى تزكيتهم.

فهذه المهمات الثلاث التي قام بها الرسول r ، والتي هي منبثة في صفحات حياته ومراحلها كلها، في أقواله وأفعاله، يجب على المؤمنين، في جميع العصور معرفتها، لأنها ترسم الطريقة الصحيحة في فهم التربية وتطبيقها، وليس لها مصدر يرجع إليه إلا في السنة النبوية، لأن الرسول r وحده هو فيها القدوة، وللمؤمنين فيه الأسوة.

وتتعدد البراهين التي تجعل من الاعتماد في تربية المسلم على السنة النبوية فرضا واجب الالتزام به، فمن ذلك [٩]:

١- القرآن الكريم، فقد حوت آياته العديدة، كثيرا من الأدلة الموجبة على العمل بالسنة، منها:

(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (النساء: ٨٠)، وقوله:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا) (الأحزاب: ٣٦)، وأيضا:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ...) (الحشر: ٧)

ففي هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول r والتسليم لحكمه واتباعه، وهذه الطاعة في حال حياته وبعد وفاته، ففي حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذي أخذوه عن رسولهم r ، حيث كان يبين لهم ما أنزل إليهم، وحيث كان يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع لهم الحوادث التي لم ينص عليها القرآن [١٠]، فهو إذا كان يطبق لهم الأحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحي الذي يوحيه الله له:

---

(9) عبد الغني عبد الخالق، حجية السنة، بيروت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار القرآن الكريم، ١٩٨٦، ص ٢٩١.

(10) أحمد عمر هاشم، السنة النبوية وعلومها، القاهرة، الفتح الإعلامي، د.ت، ص ٢٨.

(يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (الأعراف: ١٥٧)

وهناك ما يؤكد على أن الله سبحانه وتعالى قد كلف الرسول r باتباع ما يوحى إليه متلوا أو غير متلو، وبتبليغ جميع ما أنزل عليه ونهاه عن التقصير في شئ منه أو تغييره أو تبديله، وعلى أنه قد عصمه من الناس الذين يريدون منه تغييرا أو كتمانا بشيء مما أنزل إليه [١١]، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة: ٦٧)

٢- بالنسبة للسنة نفسها، فأشهرها حديث معاذ حين بعثه رسول الله إلى اليمن، ومنها ما ورد عن أنس بن مالك وزيد بن ثابت أن رسول الله r خاطبهم بمسجد الخيف الموجود في منى فقال: "نضر الله امرأ سمع مقالتي فحفظها ووعاها" [١٢].

وروى البخاري عن أبي موسى رضى الله عنه، أن النبي r قال: "مثلى ومثل ما بعثني الله تعالى به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان، فالنجاة، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق" [١٣].

وروى عن أبي هريرة أن رسول الله r قال: "دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم" [١٤].

٣- إجماع الصحابة، في حياته r على وجوب اتباع سنته، فكانوا في حياته يمتثلون لأوامره ونواهيه وتحليله وتحريمه ولا يفرقون في وجوب الاتباع بين حكم أوحى إليه في القرآن الكريم، ورأى صدر عن الرسول نفسه، وكانوا بعد وفاته، إذا لم يجدوا في كتاب الله

---

(11) عبد الغنى عبد الخالق، ص ٣٠٥.

(12) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب من بلغ علما، دمشق، دار الفكر، ج١، ص٨٥.

(13) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب الانتهاء عن المعاصي، دمشق، دار الفكر، ١٩٩١،ج٧، ص ٢٣٨.

(14) جامع الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله، باب الانتهاء عما نهى عنه رسول الله، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج٥، ص ٤٧.

حكم ما نزل بهم، يرجعون إلى سنة رسول الله، فأبو بكر كان إذا لم يحفظ في الواقعة سنة، خرج فسأل المسلمين: هل فيكم من يحفظ في هذا الأمر سنة عن نبينا؟ وقصة الجدة التي جاءته رضى الله عنه تطلب ميراثها من ولد بنتها واضحة في ذلك، حيث قال لها: ما لك في كتاب الله شئ وما علمت لك في سنة رسول الله r شيئا، فارجعي حتى أسأل الناس، فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه: حضرت رسول الله r ، أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيره؟ فقام محمد بن سلمة – رضى الله عنه – فقال مثل ما قال المغيرة، فأنفذه لها أبو بكر (١٥).

التأسيس المعرفي للبناء الحضاري:

لم يكن التقرير الإلهي للأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس تقريرا مطلقا بغير شروط، فلقد ارتبط دائما باستمرارية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بكل ما يتسع له معنى المعروف من دلالات، وبكل ما يتسع له معنى المنكر من مضامين، فهذا حجر الأساس لقدرة الأمة على إقامة حضارة تفيض بخيراتها على المجموع البشرى، وتتغذى في مسيرتها بروافد متعددة تستهدى بهدى العقيدة، وتستهدف إقامة العدل على الأرض، أملا في الحظوة بالمكان المرجو في جنة الله التي بشر بها المؤمنين.

وأمر كهذا لابد أن ينبني على معرفة، إذ ما كانت مهمة الرسل إلا أن يأخذوا بأيدي البشر إلى رحاب المعرفة التي تنير لهم طريق الحق وتكشف لهم زيف الباطل. والمعرفة في كليتها ليست مما يولد الإنسان مفطورا عليه، بل هو يحصلها ويراكمها طوال مسيرته الحياتية، ومن هنا نجد ضرورة البحث عن هذه النداءات المستمرة، وصور التقدير المتعددة للرسول r للمؤمنين برسالته بأن ينهلوا من معين المعرفة، ويغترفوا بكل ما فطرهم الله به من قدرات في طلب العلم وتعلمه منذ لحظة امتلاك الإنسان القدرة على الوعي، إلى أن ينتقل إلى رحمة الله.

و لم يطلب الرسول r من المسلمين أن يسعوا إلى طلب المعرفة وإلى تحصيل العلم، وكأنهم يخزنون في عقولهم وقلوبهم "شيئا" من الأشياء، وإنما معرفة وعلما يمثلان طاقة تحريك، وقوة دفع في الحياة، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان هناك فهم ووعى بما نعرف ولما نعلم، ومن هنا كان حرص رسول الله على حث المسلمين على طلب العلم المقرون بالفهم والوعي، فقد روى معاوية بن أبى سفيان قوله: سمعت النبي r يقول: "من يرد الله به خيرا يفقه في الدين، وإنما

---

(15) أخرجه أبو داود في سننه، وأحمد في مسنده.

أنا قاسم والله يعطى، ولن تزال هذه الأمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله" (١٦).

والفقه فسره العلماء بالعلم بالشيء والفهم له في معظم المعاجم، وهو التوصل بعلم الشاهد إلى علم غائب، والفقه بالشيء هو معرفة باطنه والوصول إلى أعماقه وجوهره، فمن لا يعرف من الأمور إلا ظواهرها فقط لا يسمى فقيها، قال تعالى:

(وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (الروم: ٧)

والرسوخ في العلم يشير إلى معاني التفقه في الدين وإلى معالم الخير الذي يشير إليه الحديث المشار إليه، فعن أبي الدرداء وأبي إمامة قالا: سئل رسول الله r : من الراسخ في العلم؟ قال: "من برت يمينه وصدق لسانه، واستقام به قلبه، وعف بطنه، فذلك الراسخ في العلم"، وفى رواية أنس: "عف بطنه وفرجه".

وإذا كانت أغلب الأحاديث قد استخدمت مادة (ع ل م) وما اشتق منها للدلالة على المعرفة الأولية أو الأساسية، أو على ما هو نقيض الجهل، فإن مجموعة منها قد استخدمت هذه المادة لتفيد أن العلم هو الفهم، أو ما هو في حاجة إلى الفهم، فإذا ما غاب هذا الأخير، فما يعرف وما يطلع عليه لا يعد علما، فقد روى عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبي r شيئاً، فقال: "ذاك عند أوان ذهاب العلم"، قلت يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرؤه أبناؤنا إلى يوم القيامة؟ قال: "ثكلتك أمك، زياد، إني كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعلمون بشيء مما فيهما؟" (١٧).

فقد كان الصحابي الجليل يظن أن العلم يتمثل في قراءته القرآن ونقله إلى الأجيال المتلاحقة، فجاء الهدى النبوي ليبين أن العلم أعمق من القراءة ومن الاطلاع، فهو فهم وتدبر وعمل، ضرب مثلا يستطيع بفضله أن يستقرئ ما عليه اليهود والنصارى، فهم يعرفون النصوص المترلة وهم يحملونها معهم، ولعل البعض منهم يجيد قراءتها، ولكنهم يفتقرون إلى الفهم الذي هو الطريق إلى تحويل العلم إلى عمل.

---

(16) صحيح البخاري، م١، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً...

(17) الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٤، ط٢، م٣، ج٣، ص ١٨٥.

ولقد أدرك كثير من الصحابة هذا التوجيه النبوي، فكان الواحد منهم يقول لطلابه: اجعل قراءتك القرآن علما، فالعلم هنا هو الإدراك والوعي والفهم، وهو الكفيل بأن يحمى القراءة من أن تكون قاصرة لا تتجاوز الحناجر، فقد حذر الرسول r من هذا النوع من القراءة، فقد روى عنه أنه قال: "يخرج ناس من قبل المشرق ويقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه"، قيل: ما سيماهم ...الحديث (١٨).

وجعل الرسول r العلم ركنا من أركان الخير وطريق إليه، وميز الناس به، فقال: "الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا" (١٩).

ونبه r إلى أن طلب العلم الذي يحتاج إليه المسلم ليقيم أمور دينه هو فريضة على المسلم فقال: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" (٢٠).

وقد فسر كثير من رواة الحديث النبوي الشريف بأن الوجوب قاصر على طائفة من المسلمين، وأنه يتعلق بالعلم الشرعي، ونحن نقول – والله أعلم – بضرورة الالتزام بالنص، والنص هنا لم يخصص جماعة بعينها، وإنما أكد "كل مسلم"، ولم يحدد فرعا بعينه من المعرفة لا يتعداه، وإنما هو العلم بمطلقه.

وقد ناقش خالد محمد خالد هذه القضية متسائلا: أي علم يريده الرسول؟ ليسرع بالإجابة بأنه أولا العلم الذي يفسر للناس أمور دينهم، ويدفع حياتهم في طريق الفضيلة والخير، ويوثق أسباب اتصالهم بالله بارئهم وربهم، يقول: تعلموا الفرائض، وعلموا الناس فإني مقبوض، فالعلم الذي يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتي على رأس كل أنواع العلم وصنوفه، وذلك بما ينتظمه من تبيان لأحكام الشريعة وأسرارها، وبما ينهض من أمر بمعروف ونهى عن منكر (٢١).

وبعد هذا يجئ العلم بكل أشكاله، ما دام ينفع الناس، وينمى عطايا الحياة، فالعلم الذي يقود خطى الحضارة في رشد، ويسهم في دفع التقدم الإنساني في كل ضروراته وفى مجالاته التي تعود على الحياة الإنسانية بالنفع والخير، علم ينال حظه الوافر من أحاديث الرسول وتعاليمه.

---

(18) سنن ابن ماجه.

(19) متفق عليه، واللفظ للبخاري، كتاب التوحيد.

(20) سنن ابن ماجه، ج١، ص ٥٠.

(21) خالد محمد خالد: كما تحدث الرسول، ص ٤٩٦.

وعن أبي الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله r يقول: "من سلك طريقا يطلب فيه علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء" (٢٢).

وإذ يجعل الرسول الطريق إلى العلم طريقا في نفس الوقت إلى الجنة، فإنه يعطى العلم بذلك من التقدير والاهتمام ما يجعله لا يقل شأنا عن تلك الفروض التي فرضها الإسلام على المسلمين، وجعل الذين يؤدونها من أصحاب الجنة، ومن هنا كان قوله: "ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وتنزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده، وما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيه علما إلا سهل الله له طريقا إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه" (٢٣).

فاهتمام الرسول r بالتعليم في المجالس العلمية، وترغيبه للمتعلمين، وحثهم على حضورها وملازمتها، كل ذلك ليحقق بها لهذه الأمة الركن الأول من أركان الدعوة الإسلامية، وهو العلم،كما يتحقق بها مبدأ الجهر بالإسلام وبالإسلامية، كما يتحقق بها موضوع الدعوة العريضة المفتوحة إلى الله عز وجل دون حذر أو خوف من أحد (٢٤)، ولن يتحقق الركن الأول من أركان الدعوة الإسلامية، وهو "العلم" إلا بالتعلم، فقد كان الرسول r يقول للمتعلمين: "إنما العلم بالتعلم" (٢٥)، لذلك كان رسول الله يجلس مع المتعلمين في مجالسه التعليمية، فيعلمهم بعض الكلمات كما تعلم الكتابة، فعن سعد بن أبي وقاص قال: كان النبي r يعلمنا هذه الكلمات، كما تعلم الكتابة: "اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن نرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر" (٢٦).

وكان رسول الله r يحض أصحابه على تفهم أمور دينهم، ويأمرهم أن يسألوا عما يجهلونه، ويمنعهم أن يفتوا من غير علم، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عباس، أن رجلا أصابه جرح في عهد رسول الله، قد أصابه احتلام، فأمر بالاغتسال مما أضر به ضررا بليغا، فمات، فبلغ ذلك النبي، فقال: "قتلوه قتلهم الله! ألم يكن شفاء العي السؤال؟" (٢٧).

---

(22) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم.

(23) ببعض الألفاظ المختلفة، في سنن ابن ماجه، ١٢٤٥/٢، صحيح مسلم، ٣١٧/٤، رقم ٣٧٩١.

(24) عبد الرحمن إبراهيم شريف الضامري: مجالس النبي r التربوية في العهد النبوي، رسالة ماجستير، إربد، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، ١٩٩٥، ص ٢٣.

(25) رواه البخاري معلقا، الصحيح، ٣٨/١، باب العلم قبل القول والعمل.

(26) رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة.

(27) مسند الإمام أحمد، ج٥، ص ٢٢، حديث رقم ٣٠٥٧.

وتفسيرا للأمر روى جابر بن عبد الله أنه خرج مع مجموعة فأصاب رجل منهم حجر فشج رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه قائلا: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما رويت المسألة للرسول قال بأن كان يكفى أن يتيمم، ويعصب على جرحه، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده [٢٨].

وكان رسول الله r كثيرا ما يدعو الله عز وجل، فيما يروى عن أبى هريرة، فيقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن دعاء لا يُسمع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع" [٢٩]. وفى استعاذة رسول الله من العلم الذي لا ينفع دلالة على جانب كبير من الأهمية يؤكد هذا الحرص النبوي على وظيفية العلم، علما بأن معيار النفع، وإن كان يتغير بتغير الزمان والمكان، إلا أنه لابد أن يكون محكوما بالمرجعية الإسلامية التي لا تحصر النفع في الدائرة الفردية الشخصية وحدها [٣٠].

وفى نفس السياق يجئ ما رواه جابر بن عبد الله من أن النبي r قال: "لا تطلبوا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار"[٣١].

فقد رسم هذا الحديث فضيلة ينبغي أن يتحلى بها طالبو العلم، وذلك بالتحذير من الصفات الذميمة، فبنهيه عليه الصلاة والسلام عن العلم الذي تكون غايته المباهاة، أكد أن على طالب العلم أن لا ينظر إلى العلم نظرة ضيقة محورها شخصي ذاتي وإنما يتعامل مع العلم تعاملا شموليا يرى فيه قاسما مشتركا بين البشر، فقد وضع غيره لبنة أو لبنات، وسيأتي من بعده ويفعل نفس الشيء، وهذه الإضافة لا تكون سليمة ونافعة إلا إذا توافرت فيها جملة من الشروط، من أهمها فهم الأصل الذي قامت عليه [٣٢].

الدعوة إلى الحق:

وإذا كانت المعرفة أمر قد لا يقدر عليه إلا "البعض"، وخاصة في إطار ما كان عليه المجتمع الإسلامي في نشأته الأولى، فإن هناك مستوى آخر كان لابد أن يكون "عاما" بين الجميع، وهو الذي يجئ عن طريق الدعوة.

---

(28) محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠، ط٣، ص٣٨.

(29) سنن ابن ماجه، ج١، ص ٥٦.

(30) سعيد إسماعيل على: السنة النبوية، رؤية تربوية، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٢، ص ٢٤٢.

(31) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به.

(32) محسن بن محمد بن سعيد: العلم وأهله في الحديث النبوي الشريف، بيروت، مؤسسة الريان، ١٩٩٨، ص ١١٦.

والدعوة في جوهرها عمل تربوي من طراز خاص، ذلك أن الدعوة هنا تكون إلى عقيدة، ليست مجرد مقرر أو خصلة أخلاقية بعينها أو مهارة بذاتها، وإنما إلى ذلك الجذر الذي يحدث انقلابا كبيرا شاملا في مختلف جوانب الشخصية، ومن هنا فإن وقوفنا على صور من جهد الرسول r وبعض صحابته للدعوة إلى دين الحق، هي من غير شك زاد ضخم، لابد أن يعين كل من يريد أن يبنى شخصية وفقا للتصور الإسلامي.

والذي اتفق في رسالة محمد r كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التي تفوق المعجزات، لأنها، مع ضخامتها وتعدد أجزائها، وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه [٣٣].

فلقد كان رسول الله مستكملا للصفات التي لا غنى عنها في إبلاغ كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ، كانت له فصاحة اللسان واللغة، وكانت له قدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة، وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها.

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع الكلام، فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق غير فصيحة، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب، أما فصاحة محمد فقد تكاملت له في كلامه، وفى هيئة نطقه بكلامه، وفى موضوع كلامه [٣٤].

وقد ظلت الدعوة سرية حينا من الزمن إلى أن تلقى رسول الله r من ربه الأمر بالجهر بها: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الحجر: ٩٤)

وكان التركيز في مرحلة السرية على بناء العقيدة، فحيث إن العقيدة الكافرة كانت قد ملأت على الناس حياتهم، فلابد من تصحيح هذه العقيدة وبناء العقيدة السليمة بشكل هادئ لأن العقيدة الصحيحة هي التي ينبثق منها العبادة الصحيحة والسلوك الصحيح، وهى التي تضمن في الوقت نفسه الثبات على الحق، وتحمل التضحيات في سبيله عندما تطلب من المسلم أن يؤديها، وكل ما نراه عادة من التراجع والتذبذب والنفاق والتخلى عن طريق الحق، مرده ضعف هذه العقيدة وتزعزعها وعدم تمكنها من القلب المسلم [٣٥].

---

(33) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، يونية ١٩٥٢، ص ٢٨.

(34) المرجع السابق، ص ٢٩.

(35) منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، الزرقاء، مكتبة المنار، ١٩٩٢، ج، ص ٣٠.

ولأن الدعوة هنا تستهدف اقتلاع الجذور الفكرية والاجتماعية القائمة وإحلال جذور أخرى جديدة، كانت المقاومة عنيفة وضارية، وفى مقابلها كان الصبر وكان الجهاد، وكان الإصرار والعزم. ولما واجه الرسول ما واجهه من الحرب الشرسة التي تعددت صورها من الوثنيين محاولة منهم لثنيه عن دعوة الحق، كانت هناك دائما المظلة الربانية التي تقدم له المؤازرة، والتسكين، والطمأنة، والمواساة، وهذا ما حفلت به آيات قرآنية كثيرة نذكر منها:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ...) (المائدة: ٤١)

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) (الحجر: ٩٧- ٩٨)

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) (الأنعام:٣٤)

وعندما نحاول معرفة الخطوط العامة لما دعا إليه رسول الله الناس إليه مما يشكل قاعدة أساسية للبنية الشخصية للمسلم، نجد شيخنا الغزالي يلخصها في النقاط الأربع التالية [٣٦]:

١- الوحدانية المطلقة، فالإنسان ليس عبدا لكائن في الأرض أو عنصر في السماء، لأن كل شئ في السماء والأرض عبد لله، يعنو لجلاله ويذل في ساحته ويخضع لحكمه، وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء، ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأسا غير مستصحب معه خلقا آخر، كبر أو حقر، وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى إلى الله، وأن يترل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشرا أو ما سوى ذلك، ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة.

٢- الدار الآخرة: فهناك يوم لا شك في قدومه، يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حسابا دقيقا على حياتهم الأولى، قال تعالى: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: ٧، ٨). والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الصحيح في الإسلام، فكما أن راكب القطار موقن بأنه سيترل في محط قادم، فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية، به ستقف — حتما — لترده إلى مولاه، حيث يلقى جزاء العمر، ويجنى ما غرست يداه.

---

(36) محمد الغزالي: فقه السيرة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٠، ص ٩٧.

٣- تزكية النفس، وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل، وترك أمور أخرى حذرا من عواقبها.

٤- حفظ كيان الجماعة المسلمة، باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون، وذلك يقتضي نصرة المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف.

وعندما ضاقت الحياة بالمسلمين في سنوات الدعوة الأولى بمكة، لم يكن هذا ليثني الرسول r وأصحابه عن الاستمرار على الطريق، وإذا كانت مكة قد ضاقت بهم، فإن أرض الله واسعة، خاصة أن الرسالة الإسلامية لم تجئ لتربية أهل مكة وحدهم، فكان التوجيه بالهجرة إلى الحبشة.

والحق أن من أبرز ما تشير إليه عمليات الهجرة أن وطن المؤمن ليس بلدا خاصا محدودا بحواجز، أو محاطا بأسوار أو محصورا في بقعة من الأرض، فذلك هو ما تجتمع عليه البهائم من أرض وكلأ وماء، أما المؤمن فوطنه الحق حيث تعز عقيدته، أي أن عقيدة المؤمن هي الوطن والسكن والحمى والأهل، فإذا لم تكن العقيدة فلا قيمة لوطن ولا سكن ولا أهل ولا جوار، بل لا قيمة للحياة كلها ...إنها الوشيجة المتينة، التي تلتقي عندها صلات الناس وتتوثق (٣٧).

ومن هنا لم يعرف عنه r أنه سكت عن الدعوة إلى العقيدة الإسلامية التي أصبحت هي وطنه ووطن كل من آمن بها، كما لم يعرف عنه تهاون في أداء الرسالة، ولكنه كان دائب العمل، دائم الجهد، لا يثنيه صعب، ولا يرده مستعص، ولا يثني عزيمته غليظ قلب، وقد كان خصومه كلما حاول واحد منهم أن يغلق في وجهه سبيلا مهد هو بجلده وكفاحه سبيلا آخر، حتى لا تتوقف به عجلة المسير ولا تنقطع به حركة الجهاد (٣٨).

وكان r يؤكد على أن "مكان" الدعوة إلى الحق وتربية الناس، يتسع باتساع الأرض، ومن هنا كان يغشى أي مكان يمكن أن تتم فيه عملية دعوة وتعليم، وفى الأسواق التي يقيمونها للتجارة وللأدب مثل عكاظ، وذي المجنة، كان يدب في أزقتها، ويندس في طرقاتها، ويمشى في مسالكها ليدعو إلى دينه، وينوه برسالته، ولا تخلو هذه الحركة كلها من فائدة، حتى ولو أعرض عنه الناس، أو واجهوه بالبرود وعدم الاكتراث، فإنهم سيتحدثون إلى أهليهم

---

(37) توفيق محمد سبع: أضواء على الهجرة، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية (٦١)، فبراير ١٩٧٣، ص ٣٦.

(38) إبراهيم أبو الخشب: من فيض الرسالة، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية (٦٣)، أبريل ١٩٧٣، ص ١٢٩.

وذويهم بما صادفوه في أسفارهم، وما لاقوه في غربتهم، ولذلك كانت الأبواق من كل جهة، وفى كل مكان، تتحدث عن حدث جديد، ورسالة جديدة، وكان ذلك بمثابة التمهيد لما سيكون من تبليغ ومعرفة وإذعان وقبول [٣٩]. فكأنما نحن أمام صورة من صور التربية الشعبية، كما نقول في مصطلحاتنا المعاصرة، أو "تعليم الجماهير" بأجلى ما يمكن للتربية أن تكون، وبأعمق ما يمكن للتعليم أن يكون.

ولأن طبيعة الجماعة التي يُستهدف تعليمها وتربيتها تحدد إلى حد كبير نوعية الوسيلة وخصوصية المسرب، رأينا أن من قنوات الدعوة والتربية التي تعامل معها رسول الله، تلك الوفود التي كانت تأتيه للتعرف على الرسالة الإسلامية، ومن استقراء الوقائع والأحداث الخاصة بهذه الوفود يمكن لنا أن نخرج بما يلي [٤٠]:

١- حكمة الرسول r وسياسته وقوة صبره ورحابة صدره، فهذا وفد بنى تميم يعترض على انشغال الرسول عنهم بأداء الصلاة، وينادونه من وراء الحجرات، ويغضب الرسول لذلك، ثم ينزل عليه الوحي معنفا وموبخا لهؤلاء الذين لم يصبروا حتى يخرج الرسول إليهم فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (الحجرات: ٤، ٥)

ومع ذلك لم يضق الرسول بهم ذرعا فقابلهم، بل إنه استجاب لهم حينما طلبوا إليه أن يفاخروه بالخطابة والشعر، فترك خطيبهم وشاعرهم يلقى أشعاره على مسامع القوم، ثم خطب ثابت بن القيس عن المسلمين، وألقى حسان بن ثابت قصيدة يرد بها عليهم، فاقتنعوا ودخلوا الإسلام طواعية، وعادوا إلى أقوامهم ينشرون الإسلام ويدعون إليه.

٢- استخدم الرسول r أساليب الجدل وإقامة الحجة والبرهان في الدعوة إلى الله من خلال لقاءاته بالوفود ومناقشاته معهم، فقد قال له وفد نجران النصراني: مالك تشتم صاحبنا وتقول إنه عبد الله؟ فأجابهم الرسول: "أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول" [٤١]، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله. فأنزل الله تعالى عليه قوله: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ

---

(39) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(40) حسن عبد الحميد حسن: منهج الدعوة في العهد المدني، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٤، ص ٣٦.

(41) المرجع السابق، ص ٣٧.

قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (آل عمران: ٥٩)، وكانت حجة دامغة حقاً، شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه.

٣- الإسلام دين عزة ومنعة، ولا شك أن من أهم مظاهر العزة والمنعة أن يأتوه الناس مختارين طالبين له لا أن يقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم عنوة، ومن ثم فقد كان من الضروري ألا يكره الناس على اعتناقه، ويرفض مبدأ المساواة على ذلك، فهذا هو عامر بن الطفيل رئيس وفد بنى عامر يساوم الرسول r على الدخول في الإسلام في مقابل أن يجعل له شيئا، يقول مخاطبا الرسول r : يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فيجيبه الرسول: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فيقول عامر: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ فيرد الرسول: ليس ذاك لك ولا لقومك!![٤٢].

بنـــــــاء الرجال:

وإذا كان لابد لتربية الأمة من قيادة مؤمنة واعية: تنظم وتوجه وترعى وترشد وتعين وتعلم، تمثلت في معلم الأمة محمد r ، فإن ما يكمل المسألة هو أن تكون بجوار هذه القيادة مجموعة من البنى البشرية أحسن تكوينها وربيت على المبادئ نفسها التي يبشر بها القائد المعلم.

وكان من الطبيعي أن يسعى الرسول في خطوات تربيته الأولى لهذا النفر من البشر أن يقرأوا القرآن الكريم ويتعلموه، فهو دستور التربية الإسلامية، وما كان على الرسول الكريم إلا أن يستجيب لتوجيه المولى عز وجل: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: ١٢٥)، قوله (إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ) (الشورى: ٤٨)، وهو توجيه محدد المعالم، فكان يطبقه تطبيقا دقيقا، في حكمة النبيين، وسلوك المرسلين، ويتفرس الرجال ويعرض عليهم الإسلام، ويحاول ما استطاع إلى بلوغ الغرض مختلف السبل، ولا يألو جهدا ولا يقصر عن غاية، في وداعة عهدها أهل مكة فيه منذ تطلعت إليه أنظارهم [٤٣].

والتربية عند رسول الله في مبدئها كانت تتعمق الجذور، وتقيم الأساس الصحيح للبناء، حماية لفطرة الإنسان حتى يظل كيانه الذي خلقه الله عليه بريئا مما يرد من مستنقعات الشرك

---

(42) المرجع السابق، ص ٣٨.

(43) يوسف عبد الهادي الشال: خاتم المرسلين، حياة ورسالة، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية (٤٨)، أبريل ١٩٧٢، ص ١٠٧.

والوثنية في شتى صورها وتعدد مظاهرها، وقد عنيت التربية أول ما عنيت برد الإنسان إلى فطرته، وتركيز الإيمان في قلبه مبرأ، وتكوين العقيدة السليمة التي يقوم عليها بناء الإسلام الشامخ الذي شاء الله له أن يكون خاتم الرسالات وأن يكون رسوله r خاتم المرسلين.

واستطاع الرسول بتربيته للرعيل الأول من المسلمين أن يجعل الإيمان بالرسالة يتغلغل في عقولهم وقلوبهم، إلى حد ينسى الإنسان معه نفسه، فهو – عن حب واقتناع لا من تكليف ورهبة – يفدى الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس. عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي r ، وهو آخذ بيد عمر، فقال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلى من كل شئ إلا نفسي! فقال رسول الله: "لا – والذي نفسي بيده – حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إلى من نفسي. فقال رسول الله r : "الآن يا عمر، الآن فقط تم إيمانك"!![٤٤].

ومن المهم التنبه إلى معنى هام في هذا الموقف، فرسول الله لم يطلب من الناس أن يقدسوا فيه صورة اللحم والدم، ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ليموتوا كي يحيا، كلا فمحمد أراد من المؤمنين أن يقدسوا فيه معنى الرسالة، وأن يفتدوا فيه مثلها العالية، وأن يصونوا – في شخصه – معالم الحق المترل ومآثر الرحمة العامة [٤٥]:

كان ثوبان مولى رسول الله شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فآتاه ذات يوم، وقد تغير لونه، يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله: ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله، ما بي مرض، ولا وجع، غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك. ثم إني إذا ذكرت الآخرة، أخاف ألا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة كنت في مترلة أدنى من مترلتك، وإن لم أدخلها لم أرك أبدا [٤٦]، فترل قوله سبحانه وتعالى: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا) (النساء: ٦٩)

ولقد كان من ثمار هذا الحب أن صار محمد لهم قدوة، ولا تكون القدوة إلا حيث يكون الحب، وإنهم ليمشون بالإجلال الصادق في آثاره، ويقتبسون بالإعجاب الرائع من أنواره، امتدت إليه أعينهم وأسماعهم فغشيهم الانبهار والإعجاب به، وامتدت إليه قلوبهم فغزاها بجليل فعله، وما من شئ أشار به أو نبه عليه إلا سارعوا فامتثلوه حتى لم يعد لنفوسهم حظ

---

(44) حديث صحيح، أخرجه البخاري، وأحمد: ٤ / ٢٢٤.

(45) محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ٢١٢.

(46) المرجع السابق، ص ٢١٣.

مع رسولهم.. تلك هي طلائع التربية الجديدة: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لم يكن بينهم انتهازي يعمل لنفسه، أو متسلق يرتفع على كاهل غيره، أو مخادع يسعى إلى منصب أو جاه، ولقد كان الوحي المبارك يراوحهم ويغاديهم، ويتعهدهم بالتربية على عين الله فصاروا قادة العالم ورادة الخير ومعلمي البشرية حقا [٤٧].

وأكد رسول الله r على أنه كلما عمق المؤمن أخوته وصدق، ذاق حلاوة إيمانه، يقول عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحب إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" [٤٨].

وصور التعذيب والتنكيل بمن أقبلوا على الإسلام وثباتهم على إيمانهم وتحملهم ما يصعب على بشر تحمله، إنما هي دلالة على ما يمكن أن يفعله الإيمان بالله في تربية شخصية تستهين بكل ما يمكن أن تتعرض له من عذاب في سبيل إعلاء كلمة الله، وقد صور طه حسين ببيانه الساحر، صورة هي مجرد مثال من عشرات الأمثلة، يصعب حقا أن نلخصها [٤٩]:

"...ومر قوم آخرون من أصحاب محمد r بحي آخر من أحياء قريش فيرون، ويا هول ما يرون! نارا عظيمة قد أججت، ويرون رجلا قد شد وثاقه، ويرون قوما يحملونه ويدنونه من النار حتى توشك أن تحيط به، ثم يختطفونه اختطافا فيبعدون به عن النار، ثم يقيمونه أمامهم مشدودا مقيدا، ثم يتقدم أحدهم فيدفع برجله في صدره دفعة تسقطه إلى ظهره، وهم يتضاحكون، ثم يعودون به مثل فعلهم الأول، يقول قائلهم: اذكر آلهتنا بخير،وقع في محمد (سبه) ودينه، أو لتميتنك هذه النار! فلا يسمعون منه إلا: أشهد أن محمدا رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق. وما يزالون يقدمونه إلى النار ويؤخرونه عنها، ويدفعونه إلى الأرض ثم يردونه قائما حتى يغشى عليه ..."!

إنه خباب بن الأرت ... نموذج من عشرات الأمثلة الفذة لتلك الشخصيات التي رباها محمد r ، فكان ما كان من قدرتهم على أن يحملوا الرسالة إلى أرجاء الأرض مبشرين ومنذرين.

---

(47) توفيق محمد سبع: أضواء على الهجرة، ص ٩٥.

(48) صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ج١٦، ص ١٣٩، شرح النووي، ط٣ النووي، ط٣.

(49) طه حسين: الوعد الحق، القاهرة، دار المعارف، ط٢٣، ١٩٧٦، ص ٩٧.

وتجلت روعة تربية الرعيل الأول من المسلمين أيضا في قدرتهم على خوض غمار المعارك الفكرية، بالحجة والدليل وعفة اللسان والوصف الأمين الدقيق، وعمق التحليل، فالذين هاجروا لأول مرة إلى الحبشة ينيبون عنهم جعفر بن أبي طالب ليحدث النجاشي، فاستطاع أن يقدم الإسلام بصورة فريدة من خلال أربعة خطوط أساسية هي [٥٠]:

الأول: عرض فيه كل مساوئ الجاهلية وعوراتها وقذرها بحيث أصبح هذا الدين الذي يدين به وفد قريش المناوئ، والذي كان بقيادة الداهية المعروف عمرو بن العاص، تتقزز منه كل نفس بشرية.

الثاني: عرض فيه في كلمات جامعة قواعد الإسلام العامة وأسسه التي تستهوى كل حصيف عاقل، بله ملك حكيم مجرب محنك. لقد كانت تلك فرصة مواتية لجعفر كي ينقلب داعية إلى هذا الدين، بعد أن كان الهدف سياسيا بحتا هو المحافظة على الوجود الإسلامي في الحبشة.

الثالث: عرض فيه للظلم الماحق الذي نزل بالمسلمين نتيجة تمسكهم بهذا الدين، وأبرز وضع المسلمين في صورة قديسين وحواريين، تنزل بهم ضربات المجرمين الوثنيين، وهذه الصورة ذات أثر ساحر في نفوس النصارى الذين عاشوا مفهوم التضحية والفداء بالفعل.

الرابع: حيث الثناء الحصيف المتزن على الملك، الذي لا يحمل المبالغة الكاذبة، ولا التجاهل المهين، بل وضعه في صورة الأمل والملاذ لهؤلاء المستضعفين.

ولما بدأ الرسول r الاستقرار في المدينة بعد الهجرة، بدأ يعمق معاني الأخوة بين المسلمين، وهو القائل: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. ثم شبك بين أصابعه" [٥١]. وكان رسول الله جالسا، إذ جاء رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل فقال: "اشفعوا فتؤجروا، وليقض الله على لسان نبيه ما شاء" [٥٢]. وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله r: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [٥٣].

وأبرز كذلك ضرورة قيام الأخوة بين المسلمين على أساس الأمن وعدم الاعتداء، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله r: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا

---

(50) منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ج١، ص ٩٥.

(51) أخرجه البخاري، في كتاب الصلاة، بيروت، دار المعرفة، ج١، ص ٤٥، حاشية السندي.

(52) أخرجه البخاري في باب تعاون المؤمنين، ج٨، ص ١٤.

(53) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ج٤ ص ١٩٩٩.

يبع بعضكم على بيع وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه" (٥٤).

إنها التربية الربانية على يد رسول الله التي سمت بالنفس الإنسانية إلى الذروة العليا من السمو، فلم تدع صلة بين المرء وربه غير العمل الصالح والتقوى، وأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه. لم تبق أصنام ولم يبق كهنة، ولم يبق عرافون، ولم يبق شئ يحول دون أن تسمو الروح الإنسانية لتتصل بالله صلة خير ومعروف، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافا مضاعفة. إنها الروح، التي هي من أمر ربى، يستطيع الأغنياء أن يعذبوا الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذه وشهواته، وأن يهلكوه، لكنهم لن يصلوا إلى الروح، ما دام صاحبها يريد بها سموا فوق سلطان المادة، وفوق سلطان البشر، إنما يجزى الإنسان عن أعماله يوم تجزى كل نفس ما كسبت، يومئذ لا يجزى والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا، ويومئذ لا ينفع الأغنياء مالهم، ولا الأقوياء قوتهم، ولا المتكلمين كلامهم، إنما هي الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه (٥٥).

فلنكـــــــن مربين:

إن هذا الإلحاح المستمر على أن يسعى المسلم بكل ما أتاحه له المولى عز وجل من قدرة واستطاعة لطلب المعرفة أينما ووقتما أتيح له ذلك، لابد أن يكون له وجهه الآخر، فلكي يكون الفرد منا متعلما، يعنى ضرورة أن يكون هناك من يعلمه ويأخذ بيده، وبالتالي يغدو المسلم عالما أو متعلما. وفى اعتقادنا أن "أو" هنا ليست للتخيير المطلق، بحيث يكون الإنسان إما هذا أو ذاك، وإنما المقصود بها ألا تمضى لحظة من لحظات عمر الإنسان إلا ومن الضروري أن يسعى فيها، إن لم يكن في طلب المعرفة، ففي تعليمها الآخرين أو العكس. ولا شك أن من يذيعون العلم بين الناس ويسعون إلى تربيتهم إنما هم بناة بشر، وهذه الفئة بصفة خاصة هي التي يهم الدين أمرها، لأن أصحابها هم الذين يمكنون لهذا الدين على الأرض، ولا يكون التمكين للدين إلا ببشر يسلكون وفقا له وينتهجون نهجه ويتجهون صوب مقاصده.

وتتعدد الأحاديث والمواقف التي تؤكد أن الرسول ﷺ، وقبل أن يدعو كل مسلم إلى أن يقوم بدوره في إذاعة العلم بين الناس وبذل الجهد في سبيل تربيتهم، حرص هو نفسه على أن

---

(54) المرجع السابق، ج٤، ص ١٩٨٦.

(55) محمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة، دار المعارف،١٩٨١، ط١٦، ص ١٧٤.

يكون خير مرب وأفضل معلم، وأعظم مرشد وموجه، و لم لا؟ أفليست مهمة الرسل أصلا، كما سبق أن بينا هي التبليغ، والهداية، والتعليم؟ ولنستعد معا تلك الآية الجامعة التي اعتمدنا عليها كثيرا وكررنا الاستعانة بها، والتي يقول فيها المولى عز وجل:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (الجمعة: ٢)

وقد روى ابن ماجه في سننه، والدارمي في سننه، واللفظ لابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: خرج رسول الله r ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرؤون القرآن ويدعون الله تعالى، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي r : "كل على خير، هؤلاء يعلمون ويتعلمون، وإنما بعثت معلما، فجلس معهم" (٥٦).

والحق أنه لم يكن مجرد معلم مثل سائر المعلمين يقف بين مجموعة من التلاميذ يعلمهم، ولكنه كان معلم تلاميذ عددهم يشمل كل من انضوى تحت راية الإسلام، ومن تأمل حسن رعايته للعرب، مع قسوة طباعهم، وشدة خشونتهم، وتنافر أمزجتهم، وكيف ساسهم واحتمل جفاءهم، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه، والتفوا حوله، وقاتلوا أمامه ودونه أعز الناس عندهم: آباءهم وأقاربهم، وآثروه على أنفسهم، وهجروا في طاعته ورضاه أحباءهم وأوطانهم وعشيرتهم وإخوانهم، وكان كل ذلك – وأعظم منه – منهم له، r ، وهو لم يمارس الكتابة والقراءة، ولا طالع كتب الماضين، ولا أخبار المربين السالفين ...من تأمل هذا تحقق له بنظر العقل أنه r هو المعلم الأول، والنبي المرسل (٥٧).

وروى مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بينما أنا أصلى مع رسول الله r إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم! فقلت: واثكل أماه! (أي وافقد أمي إياي فإني هلكت)، ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني سكت. فلما صلى رسول الله r دعاني، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله، ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني (نهرني)، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: "إن الصلاة لا يصلح فيها شئ من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن" (٥٨).

---

(56) ابن ماجه، ٨٣/١، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

(57) عبد الفتاح أبو غدة: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، حلب، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٩٩٧، ص ١٠.

(58) صحيح مسلم، ٥ / ٢٠.

ولم يكن رسول الله فيلسوفا يضع النظريات، وهو يقيم في برج عاجي، لا يعيش مع الناس والمبادئ التي يدعوهم إليها، أو كان يترك لغيره متاعب الدعوة والتطبيق، فلم يكن الرسول داعية مبادئ نظرية خيالية، وإنما كان داعيا ومربيا ومرشدا إلى التوحيد الإيماني عملا وتربية، وإلى التعاون والنصيحة والشورى والعدالة والعلم والتعلم، والجهاد في سبيل الله، والإعداد له، ورعاية الأطفال، واحترام النساء، وإكرام الجار، وصلة الأرحام، فكانت حياته بعد البعثة النبوية عملا متواصلا في تربية الناس تربية مقصودة وواعية وواضحة المعالم [٥٩].

وتتوالى الأمثلة، وتكثر المواقف، وتبرز الشواهد، وجميعها تؤكد على أنه r أراد من كل مسلم حصل علما أن يسرع بتعليمه للآخرين، فعن علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن جده، عبد الرحمن بن أبزي، قال [٦٠] خطب رسول الله r ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيرا، ثم قال:

"ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم؟ ولا يعلمونهم؟ ولا يفطنونهم؟ ولا يأمرونهم؟ ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم؟ ولا يتفقهون؟ ولا يتفطنون؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويفطنونهم، ويأمرونهم، وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتفطنون، أو لأعجلنهم العقوبة في الدنيا".

ثم نزل فدخل بيته فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قالوا: نراه عنى الأشعريين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله r ، فقالوا: يا رسول الله ذكرت قوما بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟

فقال: "ليفقهن قوم جيرانهم، وليفطننهم، وليأمرنهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفطنون، ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا". فقالوا: يا رسول الله، أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضا، فقالوا: أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة ليفقهوهم، ويعلموهم ويفطنوهم، ثم قرأ رسول الله هذه الآية:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) (المائدة: ٧٨، ٧٩)

---

(59) عبد الحميد الهاشمي، الرسول العربي المربي، دمشق، دار الثقافة للجميع، ١٩٨١، ص ٧٥.

(60) كتاب الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للإمام زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذري، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، ج١، ص ١٢٢.

وضرب رسول الله r المثل الأعلى في ضرورة أن يكون المعلم بتلاميذه رفيقا، فعن أبي الدرداء عن النبي r ، قال: "من أُعطى حظه من الرفق، فقد أعطى حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير" (٦١).

ومن هنا نجده r يوجه المعلمين الذين كان يبعثهم للتعليم بأن يكونوا ميسرين لا معسرين، فهذه وصيته لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، عندما بعثهما إلى اليمن، حيث قال لهما: "يسرا ولا تعسرا، ويسرا ولا تنفرا" (٦٢).

وقد التفت الحافظ ابن حجر إلى ما يتضمنه هذا الحديث من مضامين تربوية عند شرحه لهذا الحديث، فأكد أن هذا الحديث أمر بالتيسير، والرفق بالرعية، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة لئلا تنفر قلوبهم، ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حد التكليف من الأطفال، ليتمكن الإيمان من قلبه، ويتمرن عليه، وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته، لا يشدد عليها، بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة ودامت عليها، نقلها لحال آخر وزاد عليها أكثر من الأولى حتى يصل إلى قدر احتمالها، ولا يكلفها بما لعلها تعجز عنه (٦٣).

وعندما كان رسول الله يواجه موقفا يشير إلى تصرف خاطئ لم يكن يعالج الأمر بالعنف، بل بالملاينة والمناقشة، من ذلك ما رواه أبو هريرة عن أعرابي دخل المسجد والرسول r جالس، فصلى، فلما فرغ قال: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا! فالتفت إليه النبي r فقال: "لقد تحجرت واسعا"، فلم يلبث الأعرابي أن بال في المسجد، فأسرع إليه الناس، فقال النبي r : "أهريقوا عليه سجلا من ماء، أو دلوا من ماء"، ثم قال: "إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين" (٦٤).

ومن حسن ممارسة المعلم لمهنته، مراعاة الحالة النفسية التي يكون عليها طلاب العلم، فعن ابن مسعود، قال: كان رسول الله r يتخولنا (يتعهدنا) بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا (٦٥)، فالملل من طبيعة النفس البشرية، ومن ثم فإن مداومة تحديث الناس والإطالة

---

(61) صحيح البخاري، ج٥، ج٥ / ٢٢٤٢.

(62) المرجع السابق، ج٤، ١٥٧٨.

(63) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص ١٦٣.

(64) الألباني: صحيح سنن الترمذي، ج١، ٤٨، ٤٩.

(65) إسماعيل الجوهري: الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٠، ص ٤.

عليهم فيه، وإتيانهم في غير الوقت المناسب، كل ذلك من أسباب إملالهم. وإذا كان رسول الله r، وهو الذي يتمنى المؤمنون لقاءه، والحديث معه، والاستماع لما يقول، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، يخشى أن يمل الناس بالموعظة، فيكف بمن هم دونه؟ (٦٦)

ولحرص رسول الله على أن يمارس كل منا صورة من صور تعليم الآخرين، ودرجة من درجاته، خاطب المسلمين بقوله (٦٧): "نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع". وأهمية هذا تتبدى لنا من احتمال أن يكون البعض ممن حضروا مجلسا تعليميا، لم يستوعبوا مسألة من المسائل الاستيعاب الصحيح، لكنهم، عندما ينقلون ما سمعوا من العلم إلى آخرين، فلربما فهم هذا الجديد ما لم يستوعبه الأول.

وإنك لعلى خلق عظيم:

ولو أنعمنا النظر في العملية التربوية فسوف نجد أنها – كما سبق أن بينا – إذا كانت تستهدف تزويد المعلم بكم من المعارف والمعلومات بنوعية تجعل منها قوة تطوير وتجديد وتغيير، إلا أنها في هذا كله، لابد أن تقوم على أسس تمتد جذورها في أعماق الإنسان، وتنعكس سلوكا يتبدى في المواقف المختلفة بما من شأنه أن يوثق الروابط بين أفراد الأمة ويشيع بينهم التآلف والتناغم والتكافل، وأمر مثل هذا إنما هو شأن أخلاقي، بدونه يمكن للمعرفة المتحصلة أن تسعى في طريق يبذر الشر ويدفع إلى الهلاك والتدمير. بل إن الدين نفسه، إذا كان يقوم على عقائد وعبادات، فإن السلوك – كما نبهنا إلى ذلك عدة مرات - هو الذي يؤسس للمجالين معا، ومعروف أن إنسانا يعتقد ويمارس عبادات، لكنه يكذب ويسرق ويزور ويغتاب ويزني، فكأنه في اعتقاده وفي عبادته يقوم بصورة أخرى من الكذب والتزوير.

ومن هنا كان رسول الله شغوفا بغرس مكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه، فكان المثل الأعلى في كل فضيلة، وكان خليقا بثناء الله عليه في كتابه الكريم كقوله: (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) (الحاقة: ٤٠)، وقوله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب: ٢١)

---

(66) سليمان بن قاسم العيد: المنهاج النبوي في دعوة الشباب، الرياض، دار العاصمة، ١٤١٥ هـ، ص ١٥٤.

(67) أخرجه الترمذي، الجامع، ١٤٢/٤، رقم ٢٧٩٥.

وحسبه من التشريف الإلهي، أن الله سبحانه وتعالى أقسم بحياته، في قوله: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) (الحجر: ٧٢)، و لم يقسم الله بحياة أحد غير محمد r ، وحسبنا من وصف أصحابه له قول على بن أبي طالب: إنه كان أجود الناس كفا، وأجرأ الناس قلبا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه [٦٨].

ويتبين من استقراء سيرة رسول الله أن حياته كانت مدرسة خلقية سلوكية شاملة، حتى الأنماط السلوكية التي لا تظهر فيها أول الأمر أسس المفاهيم الخلقية، كانت في حياة الرسول r موصولة بأسس المفاهيم الخلقية، ولو من وجه من الوجوه، فكان لها صفة الظواهر الناتجة عن أخلاق راسخة في النفس متمكنة في أركانها.

ومن البديهي بعد هذا أن يكون الكمال التطبيقي النبوي صورة مماثلة للكمال الذي وجه القرآن له ورغب فيه، وهذا ما جعل السيدة عائشة أم المؤمنين تقول في وصف خلق رسول الله: "كان خلقه القرآن"، أي كان خلقه مطابقا لما وجه له القرآن من فضائل [٦٩].

ولذلك كان صلوات الله عليه مزكيا لمن آمن به واتبعه واقتدى به واهتدى بهديه، بقوله وعمله وأخلاقه، والتزكية (التطهير) من أدناس الأعمال والأخلاق السيئة والنيات الفاسدة والعقائد والأفكار الباطلة، ولعلنا نستعيد ما وصفه به عز وجل في سورة الجمعة، إذ جعل الله من صفاته أنه يزكيهم، ولا تكون هذه التزكية بالقول المجرد، بل لابد فيها من أن يكون الرسول مثالا واقعيا حيا لما يدعو إليه مما تكون به تزكيتهم [٧٠].

ولما كان الرسول r أعلى مثل في كل صفاته الخلقية والسلوكية، كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وبذلك وصف الله له بقوله: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ...) (الأحزاب: ٦). ومع وصول رسول الله للقمة الأخلاقية، إلا أنه كان يتطلع دائما إلى المزيد، حتى أنه كان يقول في دعائه: "اللهم كما حسنت خلقي (بتسكين اللام) فحسن خلقي (برفع اللام). اللهم جنبني منكرات الأخلاق، اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، ولا يهدى لأحسنها إلا أنت" [٧١].

---

(68) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٤٢.

(69) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دمشق، بيروت، دار القلم، ١٩٧٩، ج١، ص ٣٩٦).

(70) المرجع السابق، ص ٣٨٧.

(71) عن: أحمد محمد الحوفي: من أخلاق النبي، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٩، ص ٧٠.

وشدد رسول الله على تربية الأبناء على الأخلاق الإسلامية، وضمن هذا عددا من التوجيهات التي تشير إليها الأحاديث التالية [٧٢]:

- روى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله r قال: "أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم"
- وأخرج عبد الرازق، وسعيد بن منصور، وغيرهما من حديث على رضى الله عنه: "علموا أولادكم وأهليكم الخير وأدبوهم".
- وأخرج البيهقي عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله r أنه قال: "من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه".

وتبلغ قيمة الأخلاق في التربية النبوية إلى درجة علا، تجعل منها ثروة حقيقية وفقا لمدى امتلاك قدر منها، تحدد درجة الغنى ودرجة الإفلاس، فعن أبى هريرة أن رسول الله قال: "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار" [٧٣].

فها هنا تصوير للمعنى الدارج لدى الجمهرة الكبرى من الناس عن موازين الغنى والفقر، فالميزان الأساسي هو كم المال الذي نملكه، وبالتالي يكون المفلس هو الذي تخلو يداه من هذا المال، لكن رسول الله r يؤكد هنا أن الميزان الأساسي هو تلك الأخلاقيات التي تحكم سلوك الفرد منا، فإذا كان الفرد منا تكتب له حسنات عن قيامه بالعبادات المختلفة، لكن إذا لم تترجم هذه العبادات إلى قيم خيرة تجعل لسانه عفيفا فلا يؤذى به الناس، وتكف يده عن إلحاق الضرر بهم، فالحساب الختامي نجد أنه يأتي الله وقد أصبح مديونا إلى كل من ألحق بهم الأذى، وعند تسوية الحساب يجد أن ما أتى به من عبادات لم يكفه، بل تحول إلى مديون، مفلس.

وإذا كانت "الرحمة" من أمهات الفضائل الخلقية، فإن رسول الله كان أبرز من تميز بها، والله سبحانه وتعالى قد شهد له بذلك عندما قال: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ...) (آل عمران: ١٥٩)، وقد لازمت رسول الله

---

(72) عبد الله علوان: تربية الأولاد في الإسلام، بيروت، حلب، دار السلام، ١٩٨١، ط٣، ج١، ص ١٧٩.

(73) صحيح مسلم، بشرح النووي، ج١٦، ١٣٥، ١٣٦.

هذه الفضيلة الكبرى في أشد المواقف تأزما عندما حاول المشركون في "أحد" اغتياله، وألجأوه إلى حفرة ليكب فيها، ونظر إلى زهرة أصحابه فوجدهم مضرجين بدمائهم على الثرى، ونظر إليه بقية أصحابه فإذا خده قد شق وسنه سقطت ... في هذه الأزمة قيل: ادع على المشركين، فغلبه رفقه، وجعلت نفسه العالية تستميح لأعدائه العذر فكان دعاؤه: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" (٧٤).

ومن مظاهر رحمته r ما رواه البخاري عن الحارث بن ربعي قال: قال رسول الله r: "إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه".

وأكد رسول الله على فضيلة أخرى هي الحياء، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله r: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله ...وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ...والحياء شعبة من شعب الإيمان" (٧٥).

ولعل أبرز ما يدعو الإنسان إلى الحياء أن نتأمل جيدا قوله سبحانه وتعالى: (ألم يعلم بأن الله يرى) (العلق: ١٤)، فهذا عتاب هو بالفعل أشد من وخز الإبر (٧٦)، وكذلك قوله تعالى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (غافر: ١٩)، وكذلك قوله: (إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء: ١)، فما دام الله يرى كل صغيرة وكبيرة ولا يخفى عليه شئ، أفلا يستحي من يفعل عكس ما يأمره به؟ إن هذا هو ما يفسر معنى قوله r: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت" (٧٧)، أي أن الأنبياء – عليهم السلام – قد سفهوا كل من غاب حياؤه وتدنت بهذا مروءته.

وإنما يجعل رسول الله الحياء شعبة من الإيمان، لأنه كلما قوى الإيمان بالله وبقدرته على أن يسمع كل شئ، ويرى، أورث هذا اليقين الحياء من الله فوقى المسلم الكثير من الخطايا والآثام. إن إيمان كل منا بأن الله ليس منه ببعيد، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا

---

(74) محمد الغزالي، خلق المسلم، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٤، ط٨، ص ٢٠٤.

(75) رواه البخاري ومسلم.

(76) خالد محمد خالد: لقاء مع الرسول، القاهرة، دار ثابت، ١٩٩١، ص ١٠٥.

(77) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت، ج٧، ص١٣١.

...هذا الإيمان يجعل كلا منا قرير العين بالطاعة، مرتعد القلب من المعصية، ويفجر في نفسه الحياء تفجيرا [٧٨].

ولما كانت الولاية العامة من أعظم المسئوليات في الحياة، وكانت دواعي الإغراء بمجانبة سبيل العدل وخيانة الأمانة فيها من أشد الدواعي وأقواها، كان ثواب الإمام العادل من أعظم الأجور عند الله، وكانت فضيلة العدل من أعظم الفضائل، ولذلك قال رسول الله: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن – عز وجل – وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا" [٧٩].

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه، عن جده، قال: "بايعنا رسول الله r على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ينازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق حيث كنا، وفى رواية أخرى: ...وعلى أن نقول بالعدل أين كنا لا نخاف في الله لومة لائم" [٨٠].

ولعل اتباع العدل بين الأبناء من السبل القويمة التي تؤكد تكافوء الفرص، وتوثق الروابط بين الأخوة، وتدخل الطمأنينة في النفس، قال النعمان بن بشير: "أعطاني أبى عطية، فقالت عُميرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله، فأتى رسول الله فقال: إني أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال رسول الله: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال النعمان: لا، قال رسول الله فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، فرجع أبى فرد عطيته" [٨١].

تعليم النساء:

من العبارات التقليدية التي يسوقها الكتاب والباحثون الذين يطرقون موضوعا كهذا، القول بأن المرأة هي نصف المجتمع، إنها حقيقة اجتماعية لا شك فيها، ولكن، هل هي الأساس القاعدي لنا للمناداة بضرورة تعليمها وتمتعها بما يتمتع به شريكها الرجل من الحقوق والمزايا، وما يلتزم به من الواجبات والتكاليف؟ إننا لو اقتصرنا على هذه المقولة فإنما نمهد منذ البداية إلى فشل القضية وخسارتها، لأننا بذلك نحصرها في نطاق كمي بحت، ومن قال إن مجرد العدد يرتب حقوقا وينشئ التزامات؟ وهل يعز علينا أن نضرب الأمثال بالعديد من

---

(78) خالد محمد خالد: لقاء مع الرسول، ص ١١٠.

(79) صحيح مسلم، ج٦، ص ٧.

(80) سنن النسائي، ج٧، ص ٥٢، ٥٣.

(81) أخرجه مسلم في صحيحه، ٣/ ١٢٤٢-١٢٤٣. روى روايات أخرى تختلف في بعض ألفاظها.

الكائنات الحية الأخرى التي ربما فاقت عددا وكما، ومع ذلك لا يكسبها هذا الكم حقوقا معينة؟

القضية إذن إنسانية بالدرجة الأولى ...

والقضية في الحقيقة اجتماعية في المقام الأول ...

والقضية في لحمتها وسداها دينية بما لا يدع مجالا للشك [٨٢]...

فأما أنها "إنسانية"، فلأنها تتصل بالمرأة، المخلوق الوحيد الذي يشارك الرجل في إنسانيته، وهي، وهو، بحكم هذه الإنسانية يحتلان مركزا معينا بين سائر مخلوقات الله، مركزا يجعلهما أصحاب حق في كذا وكذا في الحقوق الإنسانية العامة المعروفة، بحيث لا يكون من المقبول إنسانيا أن يقتصر أحد نوعي الإنسان بها دون الآخر.

وأما أنها اجتماعية، فلأنها تتصل بتلك الإنسانية التي بدونها يستحيل على الرجل أن يكون "الأسرة" التي هي الخلية الأولى للمجتمع، وفي رحمها يتشرب الناشئة تقاليد وعادات ومهارات ولغة المجتمع ومثله وآماله، وبدونها يستحيل أن يتم التواصل البيولوجي بين أجيال البشرية بما تفرزه من مواليد جديدة تتحمل هي دون الرجل مشقة الفترة الأولى في تكوينها.

وأما أنها دينية، فهذا هو ما سوف نحاول بيانه من خلال السنة النبوية ...

وتساق بعض الأحاديث في معرض نقص عقل المرأة وضعف خلقها (محمد عزة دروزة: المرأة في الكتاب والسنة، بيروت، المكتبة العصرية، د.ت، ط٢،٤٦)، منها حديث أخرجه ابن أبي أمامه قال: قال رسول الله r : "إن النساء سفهاء إلا التي أطاعت زوجها".

وحديث رواه الشيخان والترمذي، عن أبي هريرة عن النبي r قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شئ في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً"[٨٣]، وفي رواية: إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن ذهبت تقيمها، كسرتها، وكسرها طلاقها.

وحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي، يقول: "ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل العاقل الحازم من إحداكن" قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: "أليس شهادة المرأة كنصف شهادة الرجل؟" قلن: بلى يا رسول الله. قال:

---

(82) زينب حسن: تعليم المرأة في الفكر التربوي الإسلامي، في: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الفكر التربوي العربي الإسلامي، تونس، ١٩٨٧، ص ٩٥٠.

(83) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث ٦٧.

"فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل؟" قلن: بلى يا رسول الله، قال: "فذلك من نقصان دينها".

ولحسن فهم هذه النصوص، لابد أن نستحضر إلى الأذهان حقيقة أن كتاب الله وسنة رسوله قررا أهلية المرأة لكل تكليف إيماني واجتماعي وتعبدي ومالي وجهادي وأخلاقي كالرجل بدون تمييز، ورتبا عليها كل ما رتباه على الرجل نتيجة لكل عمل تقوم به من ذلك ثوابا وعقابا واحدا في الدنيا والآخرة بدون تمييز (٨٤)، وهذه نقطة هامة من حيث أن مسئولية ناقصي العقل في الواجبات والجرائم لا يصح أن يكون مثل تام العقل، وعينا لها نصيبا في الإرث، وأمرا بأدائه لها، وأوجبا أداءه لها، وقررا لها الحق المطلق في التصرف في كل ما يدخل في يدها من مال مهما كان عظيم المقدار دون أي تدخل أو إشراف أو إذن من الرجل مهما كانت صلته بها، فتبيع وتشترى وتستملك العقار والأرقاء والأرضية وتزرع وتحصد وتستدين وتهب وتقبل الهدية وتوصى وتعتق وتكاتب وتؤاجر وتستأجر، وجعلا أمرها بيدها إذا لم تكن قاصرة، فتزوج نفسها بدءا ومراجعة وتفتدى نفسها من زوجها وتصالحه وتجادل عن نفسها رسول الله r ومن دونه.

كذلك فقد أوجبا عليها كل ما أوجبا على الرجل من التفكير في آلاء الله والتدبر في كتاب الله والتعلم والتعليم، وقررا أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وبعضهم من بعض، ونوه بالمؤمنات الصادقات الصابرات الخاشعات القانتات الصائمات المتصدقات الحافظات لحدود الله والذاكرات الله على قدم المساواة مع الرجال (المرجع السابق، الصفحة نفسها). واعترفاً بشخصيتها في نطاق الدولة، وأخذت منها البيعة مستقلة عن الرجل مما فيه الدلالة على ذلك، وأوجبا عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر والمرحمة ...إلخ، ولا يصلح كل هذا إلا مع فرض الأهلية للمرأة ومساواتها عقلا وخلقا وقابلية ومواهب وجبلة.

والحديث الذي يذكر أن النساء سفهاء ليس من الأحاديث الصحيحة، ويتحمل التوقف إزاء ما قرره الله ورسوله من كل ما تقدم، وحتى لو صح، فإنه يستثنى من يطعن أزواجهن، وهن عادة الأكثرية الساحقة من النساء، وقد يكون من الحكمة فيه، إذا صح، حث النساء على الطاعة، وبيان كون نشوزهن هو من قبيل السفه وقصور العقل (٨٥).

---

(84) محمد عزة دروزة: المرأة في القرآن والسنة، بيروت، المكتبة العصرية، د.ت، ط٢، ص ٤٧.

(85) المرجع السابق، ص ٤٨.

ويزيد القرضاوي على ذلك [٨٦]، إن "السفهاء" اسم ذم، لأن مضمونه خفة العقل وسوء التصرف، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يذم الإنسان على ما لم يكتسبه؟ وكيف تذم المرأة لأنها امرأة، وهى لم تخلق نفسها، بل خلقها بارئها؟ وقد قال تعالى: (بعضكم من بعض) آل عمران، وفى الحديث: "إنما النساء شقائق الرجال" [٨٧].

وروايات الحديث الذي يذكر أن المرأة خلقت من ضلع أعوج كلها جاءت في سياق الإعلاء من قيمة المرأة واعتبارها، حيث أورده مسلم بعد حديث أن خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، وليس فوق هذا من اعتبار حيث جعلت "المرأة" أعظم ما يكتزه الإنسان في دنياه من كنوزها حين تكون المرأة صالحة. وفى أحاديث أبى هريرة يرد الأمر بالوصية بها في بداية الحديث، وفى نهايته، كذلك يرد – في حديث البخاري – بعد الوصية بالجار الذي قال عنه النبي **r** : "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" [٨٨]، فسياقه في عمومه سياق طيب يعطى معنى الحض على زيادة الاهتمام بها والإعلاء من قيمتها وتأكيد الوصية بها[٨٩].

وبالنسبة للحديث الثالث، فإن وصف النبي **r** لأحوال النساء قد تضمن أن المرأة لا تصلى ولا تصوم أثناء الحيض الذي يتكرر كل شهر، وهذا يجعلها تنقص عن الرجل في أمور الدين. وتضمن الحديث أنها في الشهادة لا تتساوى مع الرجل، لأن الله قد جعل دليل شهادتها على النصف من دليل شهادة الرجل، والسبب، كما جاء في القرآن الكريم هو قوله تعالى: (أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) (البقرة: ٢٨٢)، أي خشية أن تنسى فتذكرها الأخرى التي حضرت موضوع الشهادة [٩٠]، وقد وصف النبي هذا بأنه نوع من نقصان العقل، وهذا أمر نسبى، لكن هذا النقص لا يراد به إنقاص مكانة المرأة ووضعها القانوني والاجتماعي، فقد روى الخمسة أن النبي قال: "إنما النساء شقائق الرجال".

وقد جاءت الغالبية العظمى من التكاليف والتوجيهات في القرآن الكريم والحديث الشريف بصيغة الخطاب للمذكر من المؤمنين والمسلمين، واختلفت الآراء فيما إذا كان الحكم فيها

---

(86) يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة، الكويت، المنصورة، دار القلم، دار الوفاء، ١٩٩٣، ج٢، ص ٢٥٨.

(87)مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٦، ٢٥٦.

(88) صحيح البخاري، عن عائشة، في كتاب الأدب، باب الوصية بالجار.

(89) محمد بلتاجي، بحوث مختارة في السنة، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٩٨، ص ٢١٨.

(90) البهنساوي: السنة المفترى عليها، ص ٢٣٠.

يكون للذكر فقط أم للذكر والأنثى على حد سواء. ونحن نرجح ما انتهى إليه ابن حـــزم في مناقشته لهذه المسألة من أن ليس لخطاب الذكور – خاصة – لفظ مجرد في اللغة العربية غير اللفظ الجامع لهم وللإناث، إلا أن يأتي ببيان زائد بأن المراد الذكور دون الإناث، وبالتالي لم يجز حمل الخطاب على بعض ما يقتضيه دون بعض إلا بنص أو إجماع [٩١].

وبهذا المعنى نفهم قوله r : "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، فإن الخطاب هنا موجه للذكور والإناث، كما أن تنكير كلمة مسلم هنا نفهم منها الاستغراق كما يقـــول علمـــاء المنطق والبلاغة بمعنى أن يستغرق كل المسلمين والمسلمات [٩٢].

وبهذا المعنى أيضا نفهم حديث رسول الله: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع" [٩٣].

وعلى ذلك، فإن التربية، إذا كانت هي ما يتلقاه الذكر والأنثى أساســـا مـــن أبويهمـــا وبيئتهما من أخلاق وأعراف وتقاليد وآداب، فإن الأصل الشرعي فيها هو وجوب تساويهما والاهتمام بهما – بنفس القدر والمستوى – بحيث يتلقى كل منهما -حسبما يطيق ويؤهلـــه سنه – هذه الأمور من منطلق إسلامي متميز وواضح، وهذا واجـــب الأبـــوين والأهـــل ومسئوليتهم الكبرى، كما قال r : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمـــير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده..فكلكـــم راع وكلكـــم مسئول عن رعيته" [٩٤].

وإهمال تربية البنت أو الابن تضييع لهما، وقد قال r : "كفى بالمرء إثما أن يـــضيع مـــن يقوت، أو من يعول" [٩٥].

ولم يكن على رسول الله r إلا أن يؤكد في قوله وفى فعله ما يثبته القرآن من وجـــوب الإحسان للوالدين بالتسوية، بل لقد خطا القرآن خطوة ثانية فيرشد إلى ما للوالدة من جهود مضنية في تربية الأبناء، ليس شئ منها للوالد، وترى ذلك في قوله عـــز وجـــل: ﴿وَوَصَّـــيْنَا

---

(91) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧، م١ ٤١٢/٣.

(92)منى على السالوس: الحقوق التعليمية للمرأة في الإسلام، رسالة ماجستير، القاهرة، كلية البنـــات، جامعة عين شمس، ١٩٨٩، ص ٦٦.

(93) أخرجه أحمد – مع اختلاف في الصيغة اللفظية – في المسند، ٤٠٤/٣.

(94) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، ج٨، ص ١٣٣، وفى كتاب الجمعة، ج١، ص٢٤٢.

(95) البيهقي: السنن الكبرى، كتاب السير، باب الرجل لا يجد ما ينفق، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٢، ج٩، ص ٢٥،و: محمد بلتاجي، بحوث مختارة في السنة، ص ٢٠٧.

الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) (لقمان: ١٤)، وقد تبدى تأكيد السنة للقرآن، ما جاء في قوله r جوابا عن سؤال رجل: "من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟ قال: أمك، قال الرجل: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك"!![٩٦].

والذي نحب أن ننبه إليه من هذا أن القرآن حينما جاء بوصايا احترام الوالدين معا،وأكدته السنة، وبتخصيص الأم بنوع من العناية جاء ذلك منظما لما تقتضيه فطرة الخلق والتكوين، وما تقتضيه عاطفة الحنو والشفقة التي أودعها الله في قلب المرأة لولدها، وبها احتملت ما احتملت في الحمل والإرضاع والتربية الأولى والسهر على حفظ صحته وسلامته بما يخطو به في مراحل الحياة الشاقة [٩٧].

و لم يكن بناء الإسلام وصاياه بالوالدين على ما تقتضيه الفطرة، خاصا تشريعه ووصاياه في دائرة الوالدين فقط، بل إذا امتد بنا النظر وتعرفنا مقتضى الطبيعة والفطرة في كل نواحي الحياة، ثم طابقنا بين مقتضيات الطبيعة وبين تشريع الإسلام في هذه النواحي، وجدنا أن الشأن العام الذي لم يشذ و لم ينحرف هو أن التشريع الإسلامي، في كل ناحية من نواحي الحياة، ليس إلا تنظيما لما تقتضيه الفطرة والطبيعة، فتنظيمه في الأسرة إذ يقضى بأن تكون المرأة هي المربية الأولى، حيث هي المرضعة، وهى الساهرة، وأن يكون الرجل هو المربى الثاني، وأن يكون هو العامل الكادح، وهو المنفق، والمهيمن – في عدل – تنظيم لمقتضى الفطرة [٩٨].

وإذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها، فهي في نظر الإسلام أيضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل والتحذير من الرذائل، فقد سوى الإسلام بصريح الآيات بين الرجل والمرأة: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٧١).

وإذن فليس من الإسلام أن تكف المرأة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، اعتمادا على ظن أو وهم أنه خاص بالرجال دون النساء، وليس من الإسلام أن تلقى المرأة حظها من

---

(96) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ج٧، ص ٩١.

(97) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة، دار الشروق، ط٧، ١٩٧٥، ص ٢٢١.

(98) المرجع السابق، ٢٢٢.

تلك المسئولية على الرجل وحده بحجة أنه أقدر منها، أو أنها ذات طابع خاص لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب، فللرجل دائرته وللمرأة دائرتها، والحياة لا تستقيم إلا بتكليف النوعين فيما ينهض بأمتهما، فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما، انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم (٩٩).

وليس من شك أن تحميل المرأة المسئوليات يجعل لها أو عليها، الحق في أن تتعلم ما يمكنها من القيام بهذه المسئولية على الوجه الذي حددت به وطلبت منها عليه، وهو تحرى الخير والصلاح، والبعد عن الشر والفساد، ومن هنا أوجب الإسلام عليها – كما أوجب على الرجل – معرفة العقائد والعبادات، ومعرفة الحلال والحرام في المأكل والمشرب وسائر التصرفات، ولا نعرف بينها وبين الرجل فارقا دينيا في التكليف وأهليته سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل، وذلك لوصولها بطبيعتها إلى مناط التكليف، وهو البلوغ قبل أن يصل إليه الرجل (١٠٠).

ولم يفرق الرسول r في حق التعليم والتثقف بين الحرة والأمة، بل إن رسول الله لم يحث على تعليم الحرة، ولم يرغب في تثقيفها بمقدار ما حث على تعليم الأمة، ورغب في تثقيفها وتأديبها، وحيث أن الحرة لها من الحقوق ما ليس للأمة، فالأمة قد لا يلتفت إلى الاهتمام بها وتعليمها، فكان هذا التوجيه النبوي الكريم: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ...ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها، فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران" (١٠١)، فكان الأجر الأول لصاحب الأمة على حسن تأديبها وتعليمها، والأجر الثاني على إعتاقها وتزوجها (١٠٢).

وجاء نسوة إلى رسول الله تعلن: يا رسول الله، ما نقدر عليك في مجلسك من الرجال، فواعدنا منك يوما نأتيك فيه، قال: "موعدكم بيت فلان"، وأتاهن في ذلك اليوم، وذلك الموعد، قال أبو هريرة: فكان مما قاله لهن: "ما من امرأة تقدم ثلاثا من ولدها، إلا كان حجابا من النار، فقالت امرأة: واثنتين؟ فقال: واثنتين" (١٠٣).

---

(99) المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(100) المرجع الساق، ص ٢٢٨.

(101) رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي وابن ماجه.

(102) منى السالوس: الحقوق التعليمية للمرأة في الإسلام، ص ٦٩.

(103) رواه البخاري.

ولبيان المعاني التي ينطوي عليها هذا المظهر نقول: إن الرجال كانوا يلازمون النبي r فيحيطون به للتعلم، فلا تستطيع النساء مزاحمتهم عليه، وكن يجلسن في آخر صفوف المسجد، فإذا تحدث النبي بالعلم بعد الصلاة، لا يتمكن من كمال السماع، وكانت لهن رغبة في العلم مثل الرجال، إذ كلهن يعلمن أنهن مكلفات بأحكام الشريعة مثلهم، فإذا سألن الرسول أن يعين لهن يوما باختياره هو يخصهن به فأجابهن إلى ما طلبنه ووعدهن يوما بعينه، ووفى لهن فلقيهن في ذلك اليوم، وجدهن فوعظهن، وأمرهن بأشياء مما عليهن من أمر الدين، وأخبرهن بأن كل واحدة منهن يموت لها ثلاثة من أولادها في سبيل الله فإن ذلك التقديم يكون لها حجابا ووقاية من النار لعظم الأجر بعظم المصيبة، فطمعت إحداهن في فضل الله وخافت أن يكون هذا الفضل محصورا فيمن قدمت ثلاثة، فسألت عمن قدمن اثنتين، فأخبرها رسول الله بأنه لمن قدمت اثنتين أيضا (١٠٤).

وفى الحديث لمحة تربوية رائدة، وهى تكمن في أن المرأة طلبت إلى الرسول r أن تذهب إليه وبنات جنسها، وذلك حين قالت: فاجعل لنا يوما نأتيك فيه، ولكن رد الرسول عليها يتضمن أن عليهن أن يجتمعن في يوم معين، ويذهب إليهن الرسول بنفسه، فعلام يدل هذا؟ إنه يعطى المرأة حقا ويسبغ عليها كرامة، ويفيض عليها قداسة، فالرسول r يذهب إليها، وهى لا تجئ إليه!

وقد سمح رسول الله للمرأة أن تقوم ببعض الأعمال، فإذا قسنا على ذلك إباحة قيامها اليوم بأعمال تتطلب العلم، رأينا ذلك مما يحتم عليها التعلم، من ذلك قوله لامرأة عبد الله بن مسعود، التي اضطرت للعمل للإنفاق عليه وعلى أولادها: لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم فأنفقي عليهم" (١٠٥).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي r ، فحدثته فقال: "من بلى من هذه النبات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من النار" (١٠٦).

ولفظ الإحسان الذي ورد في الحديث يرشدنا إلى أن الإحسان إلى البنت يكون بتوفير أكبر فرصة لها لتنهل من الخلق القيم والعلم النافع (١٠٧).

---

(104) عبد الحميد بن باديس: من هدى النبوة، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٦، ص ١٣٣.

(105) سعيد إسماعيل على: ديموقراطية التربية الإسلامية، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٢، ص ٥٧.

(106) صحيح البخاري، ج١١، ص ٣٣.

(107) عبد الحليم أبو شقة: تحرير المرأة في عصر الرسالة، الكويت، دار القلم، ١٩٩٠، ج٢، ص ٣٥٢.

أساليب الرسول r في التعليم:

لما كانت مهمة الرسل على وجه العموم هي "تعليم" الناس مضمونا تعليميا تتطلبه الرسالة الدينية التي يكلفهم بها المولى – عز وجل – كان من الطبيعي أن يكون اختيارهم لحمل الرسالة مبنيا – ضمن معايير وخصائص أخرى متعددة – على قدرتهم على النقل والتوصيل، ومن هنا فإن ما حملته النقاط السابقة من مضامين تربوية متعددة تبرز وتوضح الأبعاد التربوية والتوجهات التعليمية لرسالة محمد r ، لابد أن يتم "توصيله" و "نقله" للناس من خلال طرق وأساليب كان لها دورها الفعال في استيعاب المسلمين لها وامتثالهم لما جاءت تحمله، وهو الأمر الذي نحاول أن نبينه فيما يلي ...

أولا: القصة النبوية. فقد كان رسول الله r أول من سلك نهج القرآن الكريم، وترسم خطاه في توظيف القصة من أجل نشر الوعي وتعميق مبادئ الإسلام في النفوس، حيث نجده r يتخذ من القصة أسلوبا مهما من أساليب الدعوة والتربية، يحملها قيم الإسلام ومعانيه، ويربي عليها الصحابة من رعيل الإسلام الأول، ويوجههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين عقيدة في الفكر والتصور وطريقة في السلوك وواقع الحياة (١٠٨)، وفوق ذلك، كان رسول الله يتلقى طلبا من الصحابة وغيرهم بأن يقص عليهم، فقد كان المشركون، مثلا، يطلبون من رسول الله أن يقص عليهم بعض الأخبار الماضية محاولة منهم لتعجيزهم كما تصوروا، أو لبيان صدق نبوته، كما يوحي لهم بذلك أهل الكتاب، فكان عليه الصلاة والسلام يقص عليهم من القرآن، كما كان يفصل أحيانا بعض قصص القرآن (١٠٩).

وتتجلى القوة التربوية للقصة في عدد من الجوانب مما يمكن الإشارة إليه فيما يلي (١١٠):

- الاعتماد على التشويق وجذب الاهتمام وتركيز الذهن وإثارة المشاعر، بما يشد السامع إلى مجريات القصة حتى يستجلي أحداثها، ويتعرف على نتائجها.
- تحفيز السامع، أي الاتعاظ والاعتبار بما حدث لأبطال القصة، والتأثر بالأعمال الخيرة التي توسلوا بها لله وصدقوا في القيام بها خالصة لوجهه الكريم، رغبة ورهبة، وكانت سبب نجاتهم من المحنة باستجابة الله عز وجل لدعائهم.
- التركيز على عملية الإيحاء التي تعتبر من أهم الوسائل المؤثرة في التوجيه والتربية.

---

(108) محمد بن حسن الزير: القصص في الحديث النبوي، الرياض، د.ن، ٩٨٣، ط٣، ص ٦٦.

(109) الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٧٣، ط٢، ص ١٩١-١٩٢.

(110) عبد الحميد الزناتي: أسس التربية الإسلامية في التربية الإسلامية، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤، ص ٢٢٠.

- والقصة لها دورها في إشباع الخيال، فهي تنقل السامع إلى الماضي إن كان كذلك، أو إلى مكان في شرق الأرض أو غربها إن كانت في الوقت الحاضر، كما أنها تنقل الإنسان ليعيش مع شخصية أبطال القصة ومواقفهم.

ومما يؤكد اهتمام رسول الله بالقصة في تربية وتعليم الصحابة، أنه كان يكرر القصة الواحدة أكثر من مرة وفى أكثر من مجلس، وقد يرجع السبب في ذلك إلى تجدد الوافدين من الصحابة على مجلسه ممن كانوا يتناوبون في التلقي عنه، كما كان يفعل عمر بن الخطاب مع صاحبه الأنصاري، حيث اتفقا على أن يذهب أحدهما إلى رسول الله يستمع إليه، ويذهب الآخر إلى عمله، وعند اللقاء يخبر من استمع صاحبه بما استمع إليه من قصص الرسول (١١١).

وقد سعى رسول الله مما قصه من قصص أن يحقق عدة أهداف، يمكن الإشارة إلى أهمها فيما يلي (١١٢):

- استخدامها كوسيلة تعليمية، فقد كان الصحابة يتحلقون حول رسول الله سائلين عن أحكام الدين الجديد التي كانت تتنزل تباعا حسب المواقف، ومن هنا كان صعبا عليهم أن تكون كل الجلسات تعليمية تقوم على التلقين، وتخلو من وسيلة تقوم على التشويق.
- استخدامها لهدف معرفي: فكثير من القصص كان الصحابة يستنتجون منه بعض المعارف المجهولة لديهم من أخبار الأمم السابقة وعاداتها وتقاليدها وتشريعاتها واختلافاتها المذهبية.
- استخدامها كمنهج من مناهج الدعوة، فلم تكن مجالس رسول الله تخلو في الغالب من وفود قادمة من الأمصار البعيدة أو القبائل التي أسلمت حديثا، أو القادمة للدخول في الإسلام، وكان هؤلاء القادمون يجلسون، فربما يطيلون الجلوس، والصحابة معهم بطبيعة الحال، وكان جلوسهم بهدف تعلم أصول الدين، والرسول r يعلم ما للقصص من قدرة في التأثير الطيب على القلوب والعقول أكثر من الوعظ المباشر المجرد.
- استخدامها لبيان القرآن وتوضيحه، فهناك بعض من القصص النبوي حكاه رسول الله توضيحا لبعض قصص القرآن، كقصة موسى وسبب خروجه إلى الخضر – عليهما

---

(111) صحيح البخاري، ١/٣٣.

(112) مصطفى رجب، الأهداف التربوية لبعض القصص النبوي، د.م، د.ن، ١٩٩٢، ص ٢٣.

السلام، ومما رواه من قصص تتعلق بالأنبياء: أيوب، وإبراهيم، ويعقوب، وغيرهم، عليهم السلام.

- استخدامها لغرس مكارم الأخلاق، فالإنسان بفطرته يميل إلى تقليد غيره، وتعليم الأخلاق بالمواعظ وحدها، أضعف كثيرا من القصص، لأن القصص تدل السامع على إمكانية انتهاج السلوك الخير اقتداء ببعض أبطال القصة، لأنهم من البشر ذوى القدرات الخاصة.

وقد تنوعت أشكال القصة النبوية وفقا لتنوع الغرض المقصود من حكيها، ووفقا لمستوى السامعين، وللظروف المحيطة، فضلا عن أن التنويع من شأنه أن يعدد السبل والوسائل مما يمكن أن يستوعب أكبر عدد ممكن منم الذين يستمعون إليها.

ثانيا، ضرب المثل: وربما فاقت الأمثال الكثير من أساليب التعبير النثري والشعري في الانتشار والشيوع، وجريانها على ألسن العامة والخاصة، في كل زمان ومكان، وهى ذات سلطة واضحة على النفوس،وكأنها قانون، إذا ذكرت أمام السامع لا يملك نقاشا لها ومعارضة، فهي تجئ مقرونة في أغلب الأحوال بالحجة والبرهان، معبرة عن حكمة الشعب عبر الزمان كله، لا أحد يعرف لها صاحبا.

ومن هنا فلا غرابة أن يستعين بها عدد غير قليل من المربين كأسلوب من أساليب التربية، وأن يكون الرسول **r** أبرز من اعتمد عليها في هذا الشأن، مع اختلاف واضح، وهو أن المثل على وجه العموم إذا كان مجهولا مؤلفه، إلا أننا هنا أمام أمثال معروف نسبها للرسول، مما يكسبها مزيدا من قوة، إذ يقترن كثير مما عرف عن ميزات الأمثال بميزة قائلها: رسول الله الذي لكل ما يقول ويفعل قوة الإلزام على كل من آمن بالله ربا وبمحمد رسولاً.

فمما أورده أبو داود عن أنس رضى الله عنه [١١٣]، قال: قال رسول الله **r** : "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة (ثمر معروف في جزية العرب له منافع كثيرة)، ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مر ولا ريح لها.

ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك، إن لم يصبك منه شئ، أصابك من ريحه، ومثل الجليس السوء كصاحب الكير (لدى الحداد)، إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه".

---

(113) سنن أبى داود ١ / ٥٢٦.

وفى هذا التشبيه النبوي الكريم أبلغ ترغيب في الخير، وأبرز تحذير عن الشر بأقرب أسلوب يدركه المخاطبون، وفيه إرشاد إلى الرغبة في صحبة الصلحاء والعلماء ومجالستهم، فإنها تنفع في الدنيا والآخرة، وفيه أيضا تحذير من صحبة الأشرار والفساق [١١٤]، ومن هنا كانت إشارة ابن القيم بأن رسول الله r جعل في هذا الحديث الناس أربع فئات، أولها: أهل الإيمان والقرآن، وهى الفئة التي تمثل أفضل شريحة من الناس، والثانية، فتضم أهل الإيمان الذين، مع إيمانهم، إلا أنهم لا يقرأون القرآن، فهم أقل شأنا من الفئة السابقة، وإن كانوا يعدون من السعداء، لكن هناك فئتان أخريان، كلتاهما من الأشقياء، فإحداهما يقرأ أفرادها القرآن، لكنهم يفتقدون الإيمان، فهم إذن من المنافقين، أما الأخرى فأصحابها لم يؤت أحد منها إيمانا ولا يقرأون، فهم من الفجار [١١٥].

ولأن الدنيا هي مزرعة الآخرة، يجد المسلم لزاما عليه أن يجد فيها بما يتفق وأوامر الله ونواهيه، ومن هنا يسوق رسول الله المثل بصورة تجعل المسلم يسلم بأنه مهما أوتى ومهما تعددت به مجالات الاهتمام، فلابد أن يظل إلى يوم البعث "منبها" و "منذرا" بألا يأتي إلا ما يرضى الله عز وجل، فعن أبى بن كعب عن النبي r أنه قال: [١١٦] إني ضربت للدنيا مثلا ولابن آدم عند الموت مثل رجل له ثلاثة أخلاء، فلما حضره الموت قال لأحدهم: إنك كنت لي خلا، وكنت لي مكرما مؤثرا، وقد حضرني من أمر الله ما ترى، فماذا عندك؟ فيقول خليله له: وما عندي وهذا أمر الله غلبني عليك ولا أستطيع أن أنفس كربتك، ولا أفرج غمك ولا أؤخر سعيك، ولكن ها أنذا بين يديك، فخذ منى زادا تذهب به معك فإنه ينفعك.

ثم دعا الثاني فقال: إنك كنت لي خليلا، وكنت آثر الثلاثة عندي، وقد نزل بي من أمر الله ما ترى، فماذا عندك؟ قال، يقول: وماذا عندي وهذا أمر الله قد غلبني، ولا أستطيع أن أنفس كربتك، ولا أفرج غمك، ولا أؤخر سعيك، ولكن سأقوم عليك في مرضك، وإذا مت أتقنت غسلك وجودت كسوتك، وسترت جسدك وعورتك. ثم قال: ثم دعا الثالث، فقال: نزل بي من أمر الله ما ترى وكنت أهون الثلاثة على، وكنت لك مصغيا، وفيك زاهدا، فماذا عندك؟ قال: عندي أنى قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة، أدخل معك قبرك

---

(114) عبد الفتاح أبو غدة: الرسول المعلم، ص ١١٤.

(115) المرجع السابق، هامش ص ١١٤.

(116) صحيح مسلم، ٤ / ١٩٩٩-٢٠٠٠.

حين تدخله، وأخرج منه حين تخرج منه، ولا أفارقك أبدا، فقال النبي ﷺ: هذا ماله، وأهله، وعمله، أما الأول الذي قال خذ مني زادا، فماله، والثاني أهله، والثالث عمله"!!

فالحديث فيه أن أمر المؤمن أو الإنسان عموما بين ثلاثة: (١١٧):

أولها، المال، فهو لا يستغني عنه في الدنيا ويحب ملازمته ليل نهار، إلا أن المال يتركه عند الموت.

والثاني: أهله، فهو يرغب في قربهم، ويعتز بكثرتهم، ويفخر بأصلهم، ويشتد عوده ويقوى بسلطانهم، إلا أنهم يحملونه بأيديهم إلى قبره، ويتركونه لمصيره، فما هم له بناصرين، ولا بحاجزين عنه العذاب إن كان من المفرطين في الدنيا.

والثالث: هو ذلك الصاحب الذي لا يتركه أبدا حتى عند الممات، وهو عمل الإنسان من صنعه، نماه وكبره وحرص عليه، فإن كان عمله في الدنيا خيرا كان له نعم الصديق في قبره، يؤنسه ويهون عليه وحشة القبر، وإن كان عمله شرا كان له في الآخرة بئس الصاحب، يبكته على ما كان منه في الدنيا، ويبشره بعذاب أليم.

ونظرا لأهمية أن يبدأ الإنسان بنفسه بما يحتمه ما يحمله من معرفة، لا تصبح المسألة فقط نشر العلم وإذاعته بين الناس، ومن هنا كان قول رسول الله: "مثل العالم الذي يعلم الناس الخير، وينسى نفسه، كمثل السراج، يضئ للناس ويحرق نفسه" (١١٨).

ونحن كثيرا ما نستخدم مثل هذا التمثيل، ولكن في اتجاه عكسي، فنحن نضربه لهذا الذي يحرص على كثرة أداء الخدمات للناس ونفعهم وبذل الخير لهم، وقلما ينتبه إلى مصلحته الخاصة، فنقول إنه مثل الشمعة تحرق نفسها لتضئ للآخرين، لكن التمثيل في الحديث النبوي المشار إليه يقصد فئة من الناس تتحمس لنصح الآخرين وتوجيههم إلى فعل الخير، بينما هم لا يفعلون مثل هذا الخير، فهو هنا أيضا مثل المصباح، ففي الوقت الذي يستفيد منه الآخرون بما يصدر عنه من ضوء، لا يفيد نفسه، بل قد يقع في جب الاحتراق.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الفئة من الناس، التي لا تنتفع مما تتعلم، فشبه الله الفرد فيها بأن مثله مثل الحمار، يمكن أن يحمل كتبا علمية قيمة، وينقلها إلى آخرين يستفيدون منها، لكنه يظل على حاله دون تأثر بما فيها: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ...) (الجمعة: ٥)

---

(117) سميح عباس (تقديم وتحقيق): الحكم والأمثال النبوية من الأحاديث الصحيحة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤، ٢٣٧.

(118) أخرجه الطبراني في الكبير، ١٦٨١، ١٦٨٥.

وعلى الرغم من أن كل ما يدعو إليه الإسلام هو من مصلحة الإنسان إلا أن الأفراد كما نعلم ليسوا سواء في تلقيه والإقبال عليه، ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا الحديث الذي يقوم على تصنيف القلوب إلى فئات أربع من حيث تمكن الدعوة الإسلامية منها، وذلك عن طريق ضرب المثل، يقول r [119]: "القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نور، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق مثل القرحة يمده القيح والدم، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه".

ثالثا: قواعد تربوية عامة. فلقد تضمنت السنة النبوية عددا غير قليل من القواعد والمبادئ التربوية العامة التي تُفعل من العمل التربوي وتعززه، نذكر منها:

= **الترغيب والترهيب،** فهو وسيلة هامة وأساسية في إثارة دافعية الناس إلى العمل الحسن، وتنفيرهم من العمل السئ، فهكذا طبيعة الإنسان، ينجذب إلى العمل بوسائل الإغراء من إثابة ومن مكافأة، وينفر وينصرف عن العمل إذا كان يرتبط به ما يسبب له الألم والعذاب.

فمن أساليب الترغيب قوله r : "من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجا يوم القيامة، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيت من بيوت الدنيا لو كانت فيه، فما ظنكم بالذي عمل به؟" [120].

ومن أساليب الترهيب، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال [121]: "قال r : قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه فلم يعطه أجره".

= **التيسير على المتعلم والرفق به:** فالإسلام لا يقبل العسر، ولا يرضى أن يتحمل الإنسان فوق طاقته، ولا بأن يشدد على نفسه أو على غيره [122]، وكتب الحديث مليئة بالأحاديث التي تؤكد في مجملها على أن التربية النبوية تحذر من الغلو، وتحث على الاعتدال، مع الأخذ بعين الاعتبار القدرات الإنسانية في العبادات وفى غيرها، وبما أن التعلم فيه جانب تعبدي،

---

(119) مسند ابن حنبل، ٣ / ١٧.

(120) أخرجه أبو داود.

(121) صحيح البخاري، كتاب الإجارة.

(122) محسن عبد الناظر، العلم وأهله، ص ٢٠٢.

ويتطلب استخدام القدرات البشرية، فإن رسول الله بين أن القائمين عليه مطالبون بالتيسير حتى لا ينفروا المتعلمين، دون ترخص بطبيعة الحال في القواعد الأساسية.

ومن هنا فإن رسول الله كان يتبع طرقا تعليمية لا ترهق المتعلمين، فلا تدعوهم إلى أن يقضوا كامل وقتهم في الطلب، بل هي تترك لهم أوقاتا للراحة ولتجديد النشاط، فقد عقد البخاري في كتاب العلم بابين، عنون الأول بباب: ما كان النبي r يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، وللثاني: باب، من جعل لأهل العلم أياما معلومة، وخرج في الأول حديثين، جاء في أولهما أن ابن مسعود قال: كان النبي r يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا [١٢٣]، وجاء في الثاني أن أنس بن مالك روى عن النبي r قال: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" [١٢٤]. أما الباب الثاني فإنه نقل حوارا دار بين عبد الله بن مسعود وبين رجل طلب منه أن يجعل لهم درسا كل يوم، فأجابه الصحابي جوابا يستمد أصله بما رواه عن الرسول في الحديث الأول من الباب الأول.

= **مراعاة الفروق الفردية**، فمما هو معروف من سنن الله في خلقه، هذا التباين والاختلاف في الألوان والألسنة والمشارب والقدرات، قال سبحانه وتعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) (الروم: ٢٢)

وقد أشار الحديث النبوي إلى شئ من هذا، في قوله r : "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" [١٢٥]، فكما أن معادن الأرض من فضة وذهب وغيرهما من المعادن الأخرى، تختلف في طبيعة تركيبها وقيمتها، فكذلك الناس يختلفون في طبيعة جبلاتهم، وفى طباعهم وأخلاقهم وخصالهم وقدراتهم، ومن كان من الناس في مستوى عال وطيب في هذه الصفات في الجاهلية، فإنه سيظل محتفظا بمستواه العالي والطيب في الإسلام إذا تفقه في الدين [١٢٦].

ولا ينبغي أن يتطرق إلى ذهن القارئ أن الاختلاف بين الناس يسير فقط على طريق الحتم الوراثي، فمهمة الرسل نفسها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الظروف البيئية والثقافية لها دورها الهام، إذ سعى الأنبياء والمرسلون إلى الأخذ بيد من ضلوا ليهدوهم إلى الطريق المستقيم.

---

(123) صحيح البخاري ١ / ١٦٢.

(124) المرجع السابق، كتاب العلم.

(125) أخرجه الشيخان وأبو داود.

(126) محمد عثمان نجاتي: الحديث النبوي وعلم النفس، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ٢٥٦.

ويجمل القرضاوي مظاهر المتعددة لمراعاة رسول الله للفروق الفردية بين الناس في المسارات التالية [١٢٧]:

- اختلاف وصاياه باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية.
- اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين.
- اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم.
- اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم.
- قبوله من بعض الأفراد موقفا أو سلوكا لا يقبله من غيره لاختلاف الظروف.

= **العدل والمساواة بين المتعلمين:** فبطبيعة الحال، تؤدى التفرقة بين المتعلمين إلى بذر مشاعر كراهية وحسد وحقد لدى الذين يرون تمييزا للآخرين عليهم بغير حق، والشعور بالظلم الذي يمكن أن يتولد لدى المتعلمين، فضلا عن أن هذا معوق رئيسي لحسن التعلم.

وتحفظ لنا السنة النبوية العديد من المواقف التي تشير إلى أولوية هذه القضية في تربية رسول الله للمسلمين، فمن الأحاديث الصحيحة عن النعمان بن البشير أنه قال: نحلني أبي نحلا (هدية) ثم أتى بي إلى رسول الله r ليشهده، فقال: أكل ولدك أعطيته هذا؟ قال: لا، قال: ألست تريد منهم البر مثل ما تريد من ذا؟ قال: بلى، قال: فإني لا أشهد" [١٢٨].

لكن هذا لا ينفى على وجه الإطلاق إمكان التفرقة في إعطاء الهدايا أو المديح بناء على عمل وإنجاز وتفوق.

= **التدرج:** فنحن نلاحظ أن من سنن الحياة الطبيعية في تناول الطعام، مثلا، نتناوله جزءا جزءا، حتى يتيسر العمل للجهاز الهضمي، فكذلك في تناول المعرفة، لابد من أخذها بالتدريج، حتى يستطيع العقل أن يستوعبها ويفهمها فهما جيدا، وتشتد الحاجة إلى ذلك بطبيعة الحال كلما سرنا قدما على طريق التقدم الحضاري، حيث تتضخم المعرفة وتتشعب مما يجعل من العسير على أحد استيعاب كل أو معظم أطرافها، فيجد من الضروري وضع أولويات، ويحصل الأهم، فالمهم، فالعادي ...وهكذا، فقد روى ابن عباس [١٢٩] أن النبي r بعث معاذا إلى اليمن، فقال: "إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ

---

(127) يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، القاهرة، مكتبة وهبه، ١٩٩٩، ط٧ ص ١٣٨.

(128) صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ج٤، ص ١٢٤٤.

(129) صحيح البخاري، ٣ / ٣٥٧.

من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب".

فعملية التدرج في التعليم تخضع لمقتضيات، فلما كان معاذ مبعوثا ليعلم قوما في منطقة أخرى بعيدة، وليسوا مثلما كان أهل مكة وثنيين، فلابد من القاعدة الأولى أولا، ثم ينتقل إلى ما بعدها ...وهكذا، ويتوج العملية التعليمية بهذا المبدأ الحاكم الذي لابد منه: العدل!

السنة النبوية في تعليم الأمة في العصر الحديث:

في مختلف الدول العربية والإسلامية، يتم تعليم التربية الإسلامية في مراحل التعليم قبل الجامعي على وجه التقريب، إلا ما ندر من البلدان، وفقا لمفهوم يجعل من التربية الإسلامية تعليما للدين الإسلامي، من حيث العقائد والعبادات والحديث النبوي والسيرة، وسير الصحابة عليهم رضوان الله. وبطبيعة الحال، فإن الوزن الذي تحتله هذه التربية ليس واحدا، فهذا بلد يزيد من جرعتها وآخر يقلل منها، ومما يؤسف له أن "الامتحانات" لها تأثير كبير فيما تحتله التربية الإسلامية لدى التلاميذ وأولياء أمورهم، فإذا كانت درجاتها تدخل في المجموع الكلى لدرجات التلميذ، علا قدرها وكثر الاهتمام بها، والعكس صحيح. والحادث أنها لا تدخل في الامتحان في البلدان التي بها نصارى، حتى لا يكون لهذا تأثير قد يكون غير موضوعي على المجموع الكلى لدرجات الطالب.

وعلى أية حال فإن تعليم السنة يأتي في معظم البلدان جزءا من المقرر الخاص بالتربية الإسلامية والتي تسمى أحيانا بالتربية الدينية.

ويستهدف تدريس السنة في التعليم ما قبل الجامعي تحقيق ما يلي [١٣٠]:

١- تعرف الطلاب على السنة النبوية من حيث طبيعتها، أنواعها، مصادرها، تدوينها، روايتها، رتبتها ...إلخ، وتحقيق هذا الجانب على قدر كبير من الأهمية، ذلك لأننا نجد عددا غير قليل لا يعرفون أساسيات التعامل مع السنة، وذلك بالوعي بالمعاني الصحيحة لكل من: الحديث الصحيح، حديث حسن، حديث غريب، هذا رواه مسلم، أو البخاري، أو متفق عليه، رواه الشيخان، فضلا عن أن كثيرين أيضا قد لا يعرفون كتب الصحاح وأصحابها، وإن كان البخاري يحظى بشهرة ومعرفة تفوق غيره.

٢- التعرف على مكانة السنة النبوية ومرتبتها من التشريع.

---

(130) فتحي على يونس: التربية الدينية الإسلامية، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٩، ص ٣١٠.

٣- الوعي بالفرق بين الحديث النبوي والحديث القدسي، والفرق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم.

٤- التعرف على الأحاديث المردودة، وعلل الرد، ومعارضتها بصحيح السنة.

٥- التدريب على استخدام مصادر الحديث المختلفة، وسهولة التعامل معها.

٦- إتقان قراءة الحديث وضبط حركاته وسكناته، وإظهار المعنى [١٣١].

٧- سلامة الفهم لمعاني الحديث، بالاعتماد على قواعد اللغة العربية، وعلى آي القرآن الكريم، وعلى الأحاديث النبوية الأخرى التي توضح الصورة الذهنية للحديث المشروح، وتحدد أبعادها، وتوسع آفاقها.

٨- التأكيد على الجانب العقلي، والتحليل المنطقي، أثناء شرح الأحاديث، إضافة إلى الاستعانة بالنصوص وواقعية الحل.

أما بالنسبة للسيرة النبوية، فإننا نؤكد على الأمور التالية [١٣٢]:

أولا: أن السيرة النبوية معين لا ينضب لكل العناصر التي تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها، ومن ثم فهي وافرة العطاء قوية التأثير، وإذا نظرنا إلى الجانب النفسي لتلميذ التعليم قبل الجامعي بصفة خاصة، الذي يتلقى هذه التربية، نجد أن السيرة، بما تعرض من نماذج، فيها إشباع قوى لكثير من حاجات هؤلاء التلاميذ، ففي مواقف السيرة النبوية، قد يجد التلميذ نفسه، وقد يجد فيها علاجا لمشكلة عنده، كما يجد فيها ما يطمح إلى تحققه في الشخصية الإنسانية، ومن هنا تأتى أهمية التركيز على الأبعاد الإنسانية بصفة خاصة في تعليم السيرة.

ثانيا: أن السيرة النبوية فيها حديث عن رسول الله، وذكر لمناقبه ومآثره، وعظيم أخلاقه، والحديث عن رسول الله أمر محبب ويملأ النفس تقديرا واحتراما، ويطوف بالقارئ أو بالسامع في عوالم نموذجية، تمتلئ حبا وإيمانا وشفافية وإخلاصا، ولذلك يكون التأثر به أقوى واشد، وكذلك الحديث عن صحابته أو بعض أئمة الإسلام.

ثالثا: أن النماذج التي تعرض على التلميذ ليست مثالية نظرية، وإنما مواقف عملية، فيها النقاء الخلقي، وحسن التصرف، وجمال السلوك، مما يجعل تأثر التلميذ بها أمرا قويا. هذا بالإضافة إلى أن التلميذ في هذا السن، بما يحدث لديه من تغيرات نفسية وبيولوجية تهز كيانه،

---

(131) حسن شحاتة، تعليم الدين الإسلامي بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الدار المصرية للكتاب، ١٩٩٤، ص ١٦٠.

(132) محمد صلاح الدين مجاور: تدريس التربية الإسلامية، الكويت، دار القلم، ١٩٧٦، ص ٣١٤.

في حاجة ماسة إلى أن يجد أمامه نماذج بشرية قادرة على أسره وتوجيهه نحو المسار الخلقـــي الصحيح، وأن تحميه من مسالك الفساد وضروب الانحراف.

رابعا: أن مواقف السيرة تمثل مواقف عالية من الإنسانية التي لا ترقى إليها مواقف أخرى، وعرض هذه المواقف في سموها وعلوها، تعطى التلميذ انطباعا بمحاولة التشبه والتأثر، وبخاصة إذا كان السلوك صادرا عن رسول الله r ، أو عن أحد صحابته الكرام [١٣٣].

....

ولابد لنا من أن نؤكد أن كل هذا الذي أبناه إنما هو قطرة من بحر، لعل اطلاع القـــارئ عليها يكون دافعا له إلى معرفة المزيد، خاصة وأن هناك، بصفة خاصة، في الجامعات التي تمنح درجات ماجستير ودكتوراه متخصصة في التربية الإسلامية، عددا غير قليل من الرسائل التي تتناول بالتفصيل والتحليل، وبمزيد من التعمق، جوانب مختلفة من السنة النبوية وسيرة الرسول r.

(133) المرجع السابق، ص ٣١٥.